وصف عربي في النظم القرآني

"حقيقته، وأسراره"

تأليف

د/ أمل محمد عبد الفراج علي راشد

المدرس بقسم التفسير وعلوم القرآن بكلية الدراسات

الإسلامية والعربية للبنات بكفر الشيخ.

وصف عربي في النظم القرآني "حقيقته، وأسراره".

أمل محمد عبد الفراج علي راشد.

قسم التفسير وعلوم القرآن، كلية الدراسات الإسلامية والعربية بكفر الشيخ، جامعة الأزهر، مصر.

البريد الإلكتروني: Nazeer333777@yahoo.com

الملخص:

الناظر في القرآن الكريم، المتتبع لآياته؛ يجد أن الله تعالى قد وصفه في عشر مواضع بأنه عربي، والمستعرض لأقوال المفسرين إزاء هذا الوصف؛ يجد أنهم قد تناولوه، مبرزين حيثيات الوصف به، إلا أنه لم تأت أقوالهم بما يكشف عن حقيقته، ولم يبينوا مدى تمكنه –كمفردة قرآنية– في نظمه، الأمر الذي استدعى البحث؛ فجاءت هذه الدراسة؛ لتلقي الضوء على أهمية المفردة القرآنية، متمثلة في الوصف (عربي)، وتبرز ضوابط دراسة عناصر النظم، وتلقي الضوء على أهمِّ الأسرار التي انبعثت من خلال هذا الوصف.

وقد تكوَّن البحث من: مقدمةٍ، وفصلين، وخاتمة.

الفصل الأول: مفتاح التعامل مع النظم القرآني. وفيه مبحثان. الأول: حقيقة وصف العربية. الثاني: ضوابط دراسة عناصر النظم. والفصل الثاني: من أسرار الوصف بالعربية في النظم القرآني. وفيه سبعة مباحث: الأول: اختيار العربية من مقتضيات حال التحدي. الثاني: الكشف عن مقومات اللغة الذاتية. الثالث: إيثار العربية لغة للتنزيل؛ إقامةً للحجة، ودحضا للمعذرة. الرابع: حصول الامتنان، ولفت النظر للاتباع. الخامس: بيان وظيفة الأمة

العربية. السادس: الترهيب من الإعراض عن التنزيل. السابع: تقرير أن اللغة العربية هي مفتاح التعامل مع النظم.

والخاتمة: فيها أهم ما توصل إليه البحث من نتائج، وبعض التوصيات، والمقترحات، وأهم المصادر والمراجع، وفهرس الموضوعات.

المنهج: اتبعتُ في هذا البحث المنهج (الاستقرائي- التحليلي- الموضوعي).

النتائج: من أهمِّ ما يجب على الباحث أن ينطلق منه في دراسة عناصر النظم: أن يعلم الله تعالى قد اصطفى اللغة العربية؛ لتكون لغة التنزيل؛ لما توفر لها من الخصائص، والسمات، ما لم يتحقق لسواها من اللغات؛ فعليه أن يتسلح بها، ويفهم مفاتحها؛ ليتسنى له دراسة عناصر النظم، والوقوف على إعجازه. وأنَّ الواجب على المفسر تجاه المفردة القرآنية: البحث عن مدى تمكنها في النظم، وإثبات إحكامها في النسج.

التوصيات: تناول المفردة القرآنية، في سياقاتها المتعددة، وإبراز وجه الإعجاز البياني في إيثارها.

الكلمات المفتاحية: وصف، عربي، النظم، القرآني.

In the Qur'anic systems, an Arab described his "truth, his secrets."

Amal Mohammed Abdul Faraj Ali Rashid.

Department of Interpretation and Qur'anic Sciences, Faculty of Islamic and Arab Studies in Kafr al-Sheikh, Al-Azhar University, Egypt.

Email: Nazeer333777@yahoo.com

Abstract:

The prophet in the Qur'an, who follows his verses, finds that God has described him in ten places as An Arab, and the reviewer of the sayings of the interpreters about this description, finds that they have addressed it, highlighting the merits of the description of it, but their words did not come to reveal its truth, and did not show They assessed the extent to which he, as a Qur'anic individual, was able to study the systems, which necessitated the research, and this study came to shed light on the importance of the Qur'anic vocabulary, represented by description (Arabic), highlighting the controls of the study of the elements of systems, and highlighting the most important secrets that were sent through this description.

The research may be from: introduction, two chapters, and a conclusion.

Chapter 1: The key to dealing with Qur'anic systems. There are two researches. The first is the fact of describing Arabic. Second: system elements study controls. Chapter 2: One of the secrets of description in Arabic in Qur'anic systems. There are seven investigations: the first: choosing Arabic from the requirements of the challenge. Second: Revealing the

elements of self-language. Third: Altruism arabic is a language for download; Fourth: get gratitude, and draw attention to the followers. 5: The Statement of the Function of the Arab Nation. 6: Intimidation of download symptoms. 7: Report that Arabic is the key to dealing with systems.

Conclusion: The most important findings of the research, some recommendations, proposals, the most important sources and references, and the index of topics.

Curriculum: In this research, I followed the curriculum (inductive, analytical, objective).

Results: One of the most important things that the researcher should start from in the study of the elements of systems: that God knows the Arabic language, to be the language of downloading, because of the characteristics and features provided to it, unless it is achieved for other languages; The interpreter must seek out how well they can be in systems, and prove their tightness in weaving.

Recommendations: Address the Qur'anic vocabulary, in its many contexts, and highlight the graphic miracle in its altruism.

Keywords: Description, Arabic, Systems, Qur'anic.

المقـــــــــــدمة

الحمد لله الذي أنار الدنيا بضياء العلم، وشموس المعرفة، والصلاة والسلام على النبي المصطفي ﷺ، وآله، وصحبه ﷺ، ومَنْ اقتفى أثره المستمد من: الكتاب العزيز، والسنة المشرفة.

أمـــا بعـــــد ...

فهذه دراسة تفسيرية موضوعية تعالج وصفا لطيفا، ونعتا بديعا، وقيدا حبيكا، وهو وصف (العربية) مسندا إلى القرآن الكريم على اختلاف أسمائه، وتعدد اعتباراتها، وتُعْنَى بالكشف عن وجه إعجازه البياني في النظم القرآني، وهي بعنوان: (وصف عربي في النظم القرآني "حقيقته، وأسراره")، وقد اقتضى الحال تقسيمها إلى: مقدمة، وفصلين، وخاتمة، مذيلة بفهارس علمية.

أما المقـــــــدمة : فقد ضمنتها العناصر التالية:

أولا: ســـبب اختيـــار هـــذا الموضـــوع :

كان سبب اختياري هذا الموضوع، هو إرادة الله ﷻ أولًا، ثم رغبتي في دراسة وصف (العربي)، والبحث في دقائقه، والغور في أسراره، والكشف عن وجه تعينه في النظم، وتمكنه في السبك؛ للوقوف على حيثية بلاغة إيثاره، ووجه الإعجاز البياني فيه؛ لاسيما وأنه قد جاء مسندا لكلام رب العالمين، وصفا للسان التنزيل.

ثانيا: الهدف من دراسته:

أ – رغبتي القوية في خدمة الكتاب العزيز من خلال النظر في نظمه، وتأمل لبنات سبكه، ومطالعة ما قاله العلماء، والسادة المفسرون: سلفا، وخلفا؛ لإبراز جانب من أهم جوانب الإعجاز البياني للقرآن الكريم.

ب – إضافة دراسة تفسيرية موضوعية جديدة لموضوع على جانب كبير من الأهمية.

ج – الكشف عن تمكن، واستحكام أحد عناصر النظم القرآني في سياقه البديع، وبيان بلاغته، والتأكيد على أنه أحد أفراد منظومة الإعجاز البياني للكتاب العزيز.

د – الإجابة عن ما يجول في خاطري من أسئلة واستفسارات، تتصل بدقة الكلمة القرآنية التي تُعْنَى بنظم الصفة، وما تنطوي عليه من: إبداع، وجمال.

هـ – التأكيد على بلوغ النظم القرآني القمة في إيثار مفرداته: لغة، وبناء؛ بحيث لا يمكن لأحد ما تغيير ما أثبت، ولا الاستعاضة عنه من خلال تجلية هذا الرصف القرآني الرفيع.

و – إبراز رقي هذا الوصف، وانسجامه تحليليا مع سياق وروده، وموضوعيا مع بقية أفراده في عموم القرآن الكريم .

ز – بيان خصائص المفردة القرآنية، ووضع ضوابط للتعامل معها؛ من خلال تناول أحد لبنات نظم القرآن، وفرد من معاون رصفه، وهو وصف عربي.

ح – بيان مدى الترابط، وقوة الاتصال بين علم التفسير، وسائر علوم اللغة العربية، لاسيما أصولها.

ثالثا: **الدراســـــات السابقـــــة**:

لم أقف على دراسات مستقلة لهذا الموضوع في قسم التفسير وعلوم القرآن، وبعد البحث والاطلاع؛ تبين أن هذا الموضوع لم تسبق دراسته دراسة أكاديمية بالمنهجية التي سأتناوله بها– إن شاء الله تعالى–، وقد جاءت الإشارة، والتصريح إلى بعض الأسرار، والنكات التي ينطوي عليها الوصف، في ثنايا كتب التفسير، دون التعرض لبيان بلاغة المفردة، أو دقة نظمها، وإعجاز بيانها، في سياقاتها [1].

---

(1) **قلت:** والإشارات في هذا الصدد متناثرة، وفي علوم شتى. ولعل أول دراسة تسلك نفس المنوال من تحليل الكلمة في ضوء اللغة، وتفعيل مدلولاتها، وتلقي الضوء على استعمالاتها – فيما أعلم– ، وتوظف ذلك في السياق، وتربطه بمقاصد السور: دراستي في التخصص (الماجستير)، وعنوانها: (أسلوب الاحتباك في القرآن الكريم)؛ حيث قد تناولت فيها المفردات التي انطوى عليها ذاك الأسلوب البديع، ووجهتها في ضوء دلالتها اللغوية، واستعمالاتها العربية؛ روما إلى الوقوف على الإعجاز البياني فيها، والذي يقضي بـ: تمكنها في النظم، واستحالة الاستغناء عنها، أو استبدالها بغيرها. وكذا دراستي في مرحلة العالمية (الدكتوراه)، وهي بعنوان: (المفردة القرآنية في نظم الجملة الحالية في سورة [البقرة] "دراسة تفسيرية تحليلية")؛ حيث قد تناولت كل مفردة في هذا التركيب – (الجملة الحالية) سواء أكانت اسمية، أم فعلية، أم حرفية، على اختلاف صورها، وتعدد أغراضها – بالدراسة والتحليل، معتمدة في ذلك على ما نيط بكل منها، من: دلالات لغوية، وما اكتنفها من استعمالات عربية، وما صيغت فيه من قوالب صرفية، ودلالة نحوية، تكشف بدورها عن سر تمكنها في النظم، وإحكامها في النسج، مقررة حقيقة، **مؤداها:** أنه لا يمكن الاستغناء عنها، أو استبدالها
==

رابعا: أهميـــــة هـــــذه الدراســـــة:

من المعلوم أن القرآن الكريم معجز من وجوه كثيرة، **أهمها** : " **بلاغته** [1] التي وصلت إلى مرتبة لم يُعْهَدْ لها مثيل " [2]. وهذا الوجه هو أبرز الوجوه وأظهرها؛ إذ هو المطابق لأحوال العرب وقت نزول القرآن؛ لأن التحدي إنما يكون من جنس ما برع فيه القوم، فمتى عجزوا عنه؛ قامت الحجة، وظهر الإعجاز.

ومن ثَمَّ قال الباقلاني [3]: " إن إعجاز القرآن لا يخفى على العربي البليغ الذي قد تناهى في معرفة اللسان العربي، ووقف على طرقها،

==

بغيرها مما قد يتوهم فيه إمكان القيام بدورها.

(1) " **البلاغة:** هي بلوغ المتكلم في تأدية المعاني حدا، له اختصاص بتوفية خواص التراكيب حقها، وإيراد: أنواع التشبيه، والمجاز، والكناية على وجهها " . مفتاح العلوم، للسكاكي: صـ ٤١٥. وينظر: الإيضاح في علوم البلاغة، للقزويني: ١ / ٥٤.

(2) إعجاز القرآن، للباقلاني: صـ ٦٩. ينظر مباحث في إعجاز القرآن، للدكتور/ مصطفى مسلم: صـ٥٠.

(3) **هو:** " القاضي أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر، المعروف بالباقلاني، البصري، المتكلم المشهور؛ كان على مذهب الشيخ أبي الحسن الأشعري، ومؤيدا اعتقاده، وناصرا طريقته، وسكن (بغداد)، وصنف التصانيف الكثيرة المشهورة، في علم الكلام، وغيره، وكان في علمه أوحد زمانه، وانتهت إليه الرياسة في مذهبه، وكان موصوفا بجوده الاستنباط، وسرعة الجواب، وسمع الحديث، وكان كثير التطويل في المناظرة. وتوفي آخر يوم السبت، ودفن يوم الأحد، لسبع بقين من ذي القعدة، سنة ثلاث وأربعمائة بـ(بغداد)، رحمه الله تعالى، وصلى عليه: ابنه الحسن، ودفنه في داره بدرب المجوس، ثم نقل بعد ذلك؛ فدفن في مقبرة باب حرب " . وفيات الأعيان، لابن خلكان: ٤ / ٢٦٩ وما بعدها بتصرف.

ومذاهبها، ولا يشتبه على ذي بصيرة " [١]. **وقال – أيضا** – : " إن البليغ المتناهي في وجوه الفصاحة، يعرف إعجاز القرآن، وتكون معرفته حجة عليه؛ إذا تحدي إليه، وعجز عن مثله " [٢].

وهذا ما قرره الشوكاني؛ حيث قال: " تحداهم سبحانه، وألزمهم الحجة؛ فقال: ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ [الطور: ٣٤]، أي: مثل القرآن، في: نظمه، وحسن بيانه، وبديع أسلوبه، فهو كلام عربي، وهم رؤوس العرب، وفصحاؤهم، والممارسون لجميع الأوضاع العربية من نظم ونثر"[٣].

ومن الوجوه – أيضا – : " **لغته** [٤]، وأسلوبه [٥] الأمر الذي أعيا البلغاء، وأعجز أساطين [٦] العرب،

---

[١] إعجاز القرآن، للباقلاني: صـ ٧٨ بتصرف يسير.

[٢] إعجاز القرآن، للباقلاني: صـ ٢٧ بتصرف يسير.

[٣] فتح القدير، للشوكاني: ٥ / ١٢٠ بتصرف يسير.

[٤] هذا: " واختيار لغة العرب؛ لينزل بها القرآن، وليحمل بها إلى العالم رسالة الإنسان، يشير إلى فضيلة جامعة، امتاز بها اللسان العربي على كل لسان " . علوم القرآن، للدكتور/ عدنان زرزور–، المكتب الإسلامي. نقلًا عن البيان في إعجاز القرآن، للأستاذ الدكتور/ صلاح عبد الفتاح الخالدي: صـ ١٤٢ .

[٥] قيل: " إن تعريف الأسلوب يَنْصَبُّ بداهة على هذا العنصر اللفظي، فهو الصورة اللفظية التي يعبر بها عن المعاني، أو نظم الكلام، وتأليفه؛ لأداء الأفكار، وعرض الخيال. أو هو: العبارات اللفظية المنسقة؛ لأداء المعاني" . الأسلوب، لأحمد الشايب: صـ ٤٦.

[٦] تدل مادة (س ط ن) على معاني: القهر، والعلو، والطول، والغلبة، والارتفاع . ينظر تهذيب اللغة، للأزهري: (س ط ن): ١٢/ ٢٣٧ . ينظر معجم مقاييس، لابن فارس: (س ط ن): ٣ / ٧١ .

وأخرس ألسنة فحول البيان " [١] .

قال الإمام الشافعي- رحمه الله-: " ولسان العرب: أوسع الألسنة مذهبًا، وأكثرها ألفاظًا، ولا نعلمه يحيط بجميع علمه إنسان غيرُ نبي، ولكنه لا يذهب منه شيء على عامتها؛ حتى لا يكون موجودًا فيها مَنْ يعرفه " [٢] .

فيقرر الإمام: " أن لسان العرب- يعني: لغتهم- أوسع اللغات مذهبا، وأغناها ألفاظا، ولا يحيط بكل لغة العرب إلا نبي " [٣] .

وهذا الوجه- رغم اختلاف العلماء في وجوه الإعجاز- هو ما أجمعوا عليه، ويسمونه (الإعجاز البياني)، وبعضهم يسميه (الإعجاز البلاغي)، والبعض يسميه (الإعجاز اللغوي)، وكلها مصطلحات تطلق على نفس المعنى [٤].

وعليه فالإعجاز البياني " يبحث في أسلوب القرآن، وبيانه، وبلاغته، يبحث في القالب القرآني، والشكل القرآني، والصورة القرآنية الظاهرة، كما

---

[١] مناهل العرفان، للزرقاني: ٢٧٨/٢ بتصرف. ينظر مباحث في إعجاز القرآن: صـ٥٤.

[٢] الرسالة، للشافعي: صـ ٣٤ .

[٣] المجاز في اللغة والقرآن الكريم، للأستاذ الدكتور/ عبد العظيم المطعني: ٤٣/٢ بتصرف يسير .

[٤] ينظر البيان في إعجاز القرآن: صـ ١٤٠ .

يبحث في الحرف القرآني، والكلمة القرآنية، والعبارة القرآنية، من حيث الصياغة، والشكل، لا من حيث المعنى، والمضمون، والموضوع " [١].

وهذه الدراسة بمثابة الشرح والتحليل لهذا الوجه؛ إذ إن " القرآن له جانبان: **الأول:** جانب ظاهري: وهو ألفاظ القرآن، وجمله، وتراكيبه، أو هو أسلوب القرآن، وطرائق العرض الفني فيه، أو هو الصورة، والشكل، والقالب الخارجي [٢] " [٣].

وتركيب الموصوف وصفته من أبرز التراكيب القرآنية التي تؤكد هذا النوع من الإعجاز، وتدلل عليه، وتوضحه؛ فهي ركن من القرآن الذي يمتاز بـ " **طريقة تأليفه**؛ فهو عجيب النظم، بديع التأليف، لذا؛ كان من ضروب إعجازه: ما فيه من انسجام، ووحدة، وترابط" [٤].

وفي هذا الصدد قال الإمام الألوسي- رحمه الله-: " وقد أطال العلماء الكلام على وجوه إعجاز القرآن، وأتوا بوجوه شتى، الكثير منها: خواصه، وفضائله، مثل: الروعة التي تلحق قلوب سامعيه، وأنه لا يمله تاليه؛ بل يزداد حبا له بالترديد، مع أن الكلام يعادى؛ إذا أعيد، وكونه آية باقية لا تعدم ما بقيت الدنيا، مع تكفل الله ﷻ بحفظه. **والذي يخطر بقلب هذا الفقير**: أن القرآن بجملته، وأبعاضه، في أقصر سورة منه؛ معجز، بالنظر

---

[١] البيان في إعجاز القرآن: صـ ١٤٣ بتصرف يسير .

[٢] ثم قال: " الثاني: جانب موضوعي: وهو معاني القرآن، وموضوعاته، أو مضامين القرآن، ومناهجه، وعلومه، ونُظُمُهُ، وحقائقه، وتشريعاته " . البيان في إعجاز القرآن: صـ ١٤٣ .

[٣] البيان في إعجاز القرآن: صـ ١٤٣ .

[٤] معترك الأقران، للسيوطي: ٢٣/١ بتصرف يسير. ينظر إعجاز القرآن: صـ ٦٩.

إلـى نظمـه، وبلاغتـه، وإخبـاره عـن الغيـب، وموافقتـه لقضـية العقل، ودقيـق المعنى، وقد تظهر كلها في آية، وقد يُترك البعض كالإخبار عن الغيب، ولا ضَيْرَ، ولا عيب فيما يبقى كافٍ في العرض وافٍ " [١] .

والخـلاصــــــة:

قلت: تبين مما سبق: أن وجوه إعجاز القرآن أكثر من أن تحصـى، وأن العبارات تتقاصر عن حدها، وتتراجع العقول عن إدراكها، وتتقهقر القرائح عن الإحاطة بها.

والـذي يخص هذه الدراسة إنما هو نـوع من القيود القرآنيـة، التـي تعد مظهرا من مظاهر إبداعه، وعنصرا من أهم عناصر منظومته الإعجازية.

ويمكن تلخيص أهمية ذه الدراسة من خلال الوجوه التالية:

أ – أنها تتضمن شرحا وافيا لوصف بديع، ونعت عجيب انطوت عليه آيات الذكر الحكيم، وهو وصف عربي مسندا للقرآن الكريم، وتلقي الضوء على بلاغته، وإعجاز نظمه؛ من خلال تحليليه لغويا، واستنباط ما توحي به دلالتـه، وتلـوح بـه استعمالاته، لاسـيما وقـد اكتفـى العلمـاء بالإشـارة إليـه، والتعرض لأسراره، دون الربط بينها، وبين حقيقته اللغوية، التي تنبعث بها، وتدلل عليها، وهذا يحتاج إلى بحث، وتوجيه، يتجلى من خلاله: بلاغة النظم القرآني، ويتقرر في ضوئه: روعة إعجازه البياني.

---

(١) روح المعاني: ١/ ٣٢.

ب – أنها تعتبر أسلوبا جديدا في مضمار الدراسات التفسيرية الموضوعية، والتحليلية.

ج – أنها قامت على بيان مدى ارتباط هذا الوصف بسياقه، وتمكنه [1] في نظمه؛ مما يبين وجه الإعجاز البياني فيه.

د – أنه يتأتى من خلالها تنزيل نصوص القرآن الكريم على واقع الحياة وقت نزوله، والإفادة من ذلك.

هـ – أنها تتميز بشمولها، واستفادتها من سائر العلوم؛ فتعتمد على مصادر: التفسير، وعلوم القرآن، واللغة، والأصول... وغيرها.

و – أنها تلقي الضوء على أحد، وأهم وجوه إعجاز القرآن الكريم، وهو الإعجاز البياني؛ إذ إنها بمثابة التفصيل له، والدليل عليه.

ز – أنها ترسخ العلاقة بين المفردة القرآنية، وبين لغتها؛ حيث قد انطلقت من حقيقة عقلية، وحيثية منطقية، سالمة من الردود الجدلية؛ فلا تقبل الرد، ولا يعتريها الريب، **ألا وهي:** أنه لا يمكن فهم كلمة ما في نظم القرآن الكريم إلا من خلال لغته التي بها نزل، ولسانه الذي به بلغ، وعليه؛ كان لا بد من الرجوع لمعناها في ضوء لغتها، واستعمالات لسانها، ومن ثَمَّ

---

[1] **قال الإمام الزركشي معرفا بالتمكين، ومبينا سره:** " وَهُوَ أَنْ تَأْتِي الكلمة ممكنة فِي مَكَانِهَا، مُسْتَقِرَّةً فِي قَرَارِهَا، مُطْمَئِنَّةً فِي مَوْضِعِهَا، غَيْرَ نَافِرَةٍ، وَلَا قَلِقَةٍ، مُتَعَلِّقًا مَعْنَاهَا بِمَعْنَى الْكَلَامِ كُلِّهِ، تَعَلُّقًا تَامًّا بِحَيْثُ لَوْ طُرِحَتِ؛ اخْتَلَّ الْمَعْنَى، وَاضْطَرَبَ الْفَهْمُ. وَهَذَا الْبَابُ يُطْلِعُكَ عَلَى سِرٍّ عَظِيمٍ مِنْ أَسْرَارِ الْقُرْآنِ؛ فَاشْدُدْ يَدَيْكَ بِهِ " . البرهان في علوم القرآن، للزركشي: ٧٩/١ بتصرف. **وتبعه الإمام السيوطي مضيفا:** " وَبِحَيْثُ لَوْ سُكِتَ عَنْهَا؛ كَمَّلَهُ السَّامِعُ بِطَبْعِهِ " . الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي: ٣٤٥/٣.

اتخذت هذا منطلقا في فهم وصف عربي؛ مما يبرهن على أن اللغة هي أساس فهمه، وعمود إعجاز بيانه.

ح– أنها تقعد ضوابط للتعامل مع المفردة القرآنية، وترسي منهجا يعتبر أصلا، ومنطلقا في دراسة عناصر النظم.

ط – أنها تكشف عن خصائص المفردة القرآنية، وتؤكد إعجاز لغتها، فكل كلمة موسومة بالعربية إنما يدل اسمها على مسماها، وحقيقتها على معناها؛ حيث قد حملت في طياتها ما يكشف عن كنهها، ويميط اللثام عن حقيقتها، ويرتسم خصائصها، ويفصح عن أسباب إيثارها، ويدلل عليها، ويبعث على التنويه بها، ويجلي وجه إعجازها... إلخ. كما سيتضح في ثنايا البحث.

ي – أنها ترشد إلى حقيقة اصطفاء اللغة العربية؛ لتكون لسان التنزيل، وترجمان الوحي السماوي؛ حيث قد توفر لها من الخصائص والميزات، ما يجعلها فصيحة المفردات، بليغة الأسلوب، فريدة التعبير، صادقة الأداء، معبرة على آكد وجه، وأبلغ بيان. فتدل كوامن كل كلمة فيها على صدق التعبير بها، وترشد مطاويها إلى سر إيثارها، وتنطق بوجه تمكنها في النظم، متحدثة بالحجة، مبارية بالبرهان، وتقرر: وجه إعجازها في القرآن، وما ذاك إلا لما توفر لها من الدلالات، وما اكتنفها من الاستعمالات، وما حملته في كوامنها، وطياتها من أبلغ المعاني، وأوسع الإشارات، وأبعد الإيحاءات... إلخ.

خامسا: منهج البحث:

هذا: وقد اعتمدت في دراستي المنهج الاستقرائي، التحليلي، مشفوعا بنمط موضوعي في طريقة العرض، وتناول الآيات ذات الصلة بموضوع واحد؛ فأقوم بدراسة وصف عربي فيها دراسة تفسيرية موضوعية مستفيضة، سالكة في منهج البحث، والتدقيق، والاستنباط الخطوات التالية:

أ – **أدرس** الوصف المنوط بالدراسة (عربي)، وأحلله، في ضوء دلالته اللغوية، واستعمالاته العربية، مبينة حقيقته، وما انطوى عليه من معان، ودلالات، وإشارات... وغير ذلك، مما من شأنها الإجابة عن سر إيثاره في النظم، ومبعث تمكنه في السياق، معتمدة في ذلك **التناول:** الاكتفاء به في موضعه الأول: شرحا، وتحليلا؛ تعويلا على تحقق الفائدة، وتجنبا للتكرار، ودفعا للسآمة.

ب – **أوجه** جميع ما انطوى عليه هذا الوصف، من دلالات، وما نيط به من استعمالات، كاشفة عن مدى الوحدة والانسجام بينه، وبين سياقه؛ لبيان بلاغة ما ذكر، وتقرير: كونه ركنا من السياق، لا يمكن الاستغناء عنه، أو إبداله بغيره؛ ناشدة من وراء ذلك إظهار حيثية بلاغة النظم القرآني، روما إلى جلاء وجه إعجازه البياني.

ج – **أقعد** لدراسة عناصر النظم بذكر قواعد من شأنها: الكشف عن وجه إعجازه، وبيان سمو نظمه.

د – **أجمع** الآيات ذات الموضوع الواحد، والتي تشتمل على موطن الشاهد، محل الدراسة، ثم أقسمها حسب المراد من هذا الوصف، وأصنفها تبعا لأسرار وروده في السياق.

هـ – أتناول كل سبب من أسباب النعت بالعربية تحت عنوان مناسب، مراعية كونه معبرا عن جوهر الموضوع، أو أهم وأبرز مسائله.

و – أذكر ما قاله العلماء في سر التعبير به، في سياقاته المتعددة، مذيلة بالتعقيب عليه.

ز – أقوم بالربط بين ما انطوى عليه ذلك الوصف من معان، وما في مكنوناته من دلالات، وما نيط به من استعمالات، وبين أسرار التعبير به؛ من خلال القول بالتوسع في المعنى؛ بتوظيفها، والإفادة منها.

ح – أعلق على أقوال العلماء، والسادة المفسرين في ثنايا الشرح، والتحليل –غالبا–؛ لإيضاحها، وبيان المقصود منها، أو للجمع بينها، أو ترجيح بعضها؛ إذا تعذر الجمع، أو شرح ما انطوت عليه من فنون نحوية، وصرفية، وبلاغية، وغير ذلك.

ط – أتعرض للقراءات القرآنية – إن وجدت – مع عزوها إلى قارئيها، من مصادرها المعتمدة.

ي – أخرج الأحاديث الواردة في البحث – إن وجدت –، وذلك؛ بعزوها إلى مصادرها المعتمدة، مقرونة بذكر اسم الكتاب، والباب، واسم الصحابي رضي الله تعالى عنه، ورقم الحديث، أو ما يقوم مقام ذلك باختلاف طرق العزو، مع الحكم عليها، مقدمة الكتب التي يفيد العزو إليها صحة الحديث– غالبا–، **وهي:** (صحيح البخاري)، (صحيح مسلم)، (المنتقى لابن الجارود)، (صحيح ابن خزيمة)، (الصحيح المنتقى لابن السكن)، (صحيح ابن حبان)، (المختارة للضياء المقدسي)، **ثم السنن الأربعة:** أبو داود، الترمذي، النسائي، ابن ماجة، **ثم بقية** كتب السنن، والمسانيد، والمعاجم، والمستخرجات،

والمستدركات، والأجزاء الحديثية، وكتب التواريخ، مرتبة لها بحسب وفيات أصحابها، مؤخرة كتب التواريخ.

هـذا: وإذا كـان الحـديث فـي الصـحيحين، أو أحـدهما؛ اكتفيـت بعـزوه إليهما، ولا أذكر معهما مصادر أخرى؛ إلا إذا كان اللفظ المذكور ليس لهما على الوجه الكامل؛ بأن أخرجا الحديث بلفظ مقارب، أو ما شابه؛ فأذكر مصدر متن الحديث بلفظه من غيرهما.

ك – أخرج الأبيات الشعرية من المصادر التي عنيت بشرحها **غالبا**؛ إتماما للفائدة.

ل – أبين المصطلحات العلمية غير المشهورة، والألفاظ الغريبة عند ذكرها لأول مرة في المتن، وذلك من مصادرها المعتمدة.

م – أترجم للأعلام غير المشهورين ترجمة متوسطة عند ذكرهم لأول مرة في المتن.

ن– أستخدم علامات التنصيص **غالبا** على النحو التالي:

القوسان المظهران ﴿ ﴾: للآيات القرآنية محل الشواهد.

القوسان ( ): لأسماء الكتب في المتن، وسنين الوفيات، والأقوال المشهورة، والأبيات الشعرية، والأمثال، وأسماء البلدان، وأرقام الحواشي، والجمل الاعتراضية [1] في المتن، ولألقاب الحروف، وما في معنى ذلك.

---

[1] الاعتراض، قيل: " وحدّه: كل كلام أدخل فيه لفظ مفرد، أو مركب، لو أسقط؛ لبقي الأول على حاله " . المثل السائر، لابن الأثير: ٢/١٧٢.

أو " **هو عبارة عن:** جملة تعترض بين الكلامين؛ تفيد زيادة في معنى غرض المتكلم " . ==

علامة التنصيص (" "): لأقوال العلماء، فما كان بنصِّه؛ ذكرت اسم مصدره مجردا، وما كان بمعناه قدمت اسم المصدر أو المرجع بكلمة (ينظر)، وما تصرَّفت فيه، عقبت الإحالة بقولي: (بتصرف، أو بتصرف يسير) [1].

الفاصلة (،): بين الجمل، وأشباهها، والمفردات، وأنواع لشيء انقسم، وبعد ألفاظ المنادى والقسم، وبين الشرط والجواب؛ إن طال.

الفاصلة المنقوطة (؛): بين جملتين، السابقة منهما نتيجة، أو علة للاحقة، أو جملة تسببت في جملة، وبين الجمل الطويلة؛ لو المعاني بينها موصولة، وقبل المفعول لأجله.

النقطة (.): بعد كلام اكتملت أجزاؤه، وحسن السكوت بانتهائه.

الشرطة (–): لكل لفظ ليس من أركان الكلام؛ كالاعتراض، أو الاحتراس [2]، أو التفسير، وبين ركني جملة؛ إن طال أَوَّلُ ركن منها، وكعلامة للتقسيم.

النقطتان الرأسيتان (:): بين لفظ القول– وما يجري مجراه– والمقول، وبين مجمل، وما قد فَصَّلَه، وبين قانون، وبين الأمثلة.

==

خزانة الأدب وغاية الأرب، للحموي: ٢/٢٨٠.

(١) وأقصد بالتصرف هنا: الحذف، الزيادة، الإبدال، التغيير، التقديم، التأخير... إلخ.

(٢) " **هو:** أن يأتي المتكلم بمعنى يتوجه عليه دخل؛ فيفطن له؛ فيأتي بما يخلصه من ذلك " . تحرير التحبير، لابن أبي الإصبع: صـ ٢٤٥. **وقيل:** " هو أن يؤتى في كلام يوهم خلاف المقصود بما يدفعه " . الإيضاح في علوم البلاغة: ٣ / ٢٠٨.

علامة الحذف (...): عند حذف كلام؛ بسبب أن ذكره قبيح، أو لا يهُمُّ به التصريح، أو طلبا للاختصار، أو استغني عنه بالأدلة.

المعقوفين [ ]: للسور، وأرقام الآيات، والجمل الاعتراضية الطويلة، في ثنايا الحواشي، كتخريج حديث في ثنايا الكلام، وما شابه.

علامة الاستفهام (؟): عند وجود أسلوب الاستفهام.

علامة الانفعال أو التعجب (!): بعد انفعال ناتج عن موقف، مثل: دعاء، أو تعجب، أو فرح، أو حزن، أو ما في معنى ذلك.

علامة التقسيم – الشرطة المائلة – (//): بين رقم الجزء، والصفحة، وبين أجزاء التواريخ، وقبل الألقاب العلمية الحديثة.

الشرطتان المتساويتان على السطر– علامة الاتصال– (=): تستخدم في المتن، والحواشي؛ للدلالة على أن الكلام لم ينته، وأن ما بعده متصل به، وبين اسمين لمصدر واحد.

س – أعزو الأقوال إلى قائليها، موثقةً النصوص من المصادر والمراجع في الحواشي كما يلي:

اكتفي بذكر اسم المصدر، أو المرجع مختصرًا، مقرونًا بذكر اسم مؤلفه في أول مرة؛ إن كان غير مشهور، ثم رقم الجزء والصفحة، وقد أذكره باسمه المعروف، أو مضافًا لصاحبه، أو المشهور به.

وذلك تجنبا للتكرار؛ حيث إني أورده في فهرس المصادر، بذكر اسم المصدر، أو المرجع كاملًا، مقرونًا بذكر اسم مؤلفه كاملا، وسنة وفاته، واسم محققه، ودار النشر، ورقم الطبعة، وعام الطبع– إن وجد–.

وفي تعدد المصادر، والمراجع؛ أرتبهم بحسب وفيات مؤلفيها، وقد أراعي في الترتيب: ظهور المعنى فيها.

هذا: وإن اعتمدت في النقل على أكثر من طبعة لنفس المصدر؛ قيدته بذكر طبعته في الحواشي.

وإذا اتحدت أسماء المصادر؛ ذكرت اسمَ كلٍ منها كاملا، بما يمييز بعضها عن بعض.

وأما الفصل الأول: فعنوانه: (مفتاح التعامل مع النظم القرآني). **وفيه مبحثان**.

المبحث الأول: حقيقة وصف عربي.

المبحث الثاني: ضوابط دراسة عناصر النظم، وفهمه.

وأما الفصل الثاني: فهو بعنوان: (من أسرار الوصف بالعربية في النظم القرآني).

وفيه سبعة مباحث.

المبحث الأول: اختيار العربية من مقتضيات حال التحدي، ومستدعيات ثبوت الإعجاز.

المبحث الثاني: الكشف عن مقومات اللغة الذاتية، وخصائص لسانها الأساسية.

المبحث الثالث: إيثار العربية لغة للتنزيل؛ إقامةً للحجة، ودحضا للمعذرة.

المبحث الرابع: حصول الامتنان، ولفت النظر للاتباع.

المبحث الخامس: بيان وظيفة الأمة العربية، وإعلان مسئوليتها تجاه البشرية.

المبحث السادس: الترهيب من الإعراض عن التنزيل، والتفريط بواجب الدعوة إليه.

المبحث السابع: تقرير أن اللغة العربية هي مفتاح التعامل مع النظم، وسبيل الكشف عن إعجازه.

وأمـــا الخاتمـــة: فقد ضمنتها بعد حمد الله ﷻ، والثناء عليه، والصلاة والسلام على رسوله ﷺ: أهم النتائج التي أثمرها البحث، وأبرز التوصيات، والاقتراحات التي خالجت نفسي، وتمنيت أن تخرج إلى ساحة البحث كموضوعات مستقلة، تخدم القرآن الكريم، وتبرز إعجازه البياني، ثم الفهارس العلمية التي تخدمه، وهي:

أ – فهرس المصادر، والمراجع.

ب – فهرس الموضوعات.

وبعد، فما كان من توفيق؛ فمن الرحمن عز شأنه، وما كان من خطأٍ، أو سهوٍ، أو زللٍ، أو نسيان؛ فمن نفسي، ومن الشيطان، وأسأله ﷻ: أن يرزقني الإخلاص في سائر أموري، وأحوالي، وأن ينفعني به في الدنيا، والآخرة، وينفع به والدي الحبيب – رحمه الله –، ووالدتي الغالية – بارك الله تعالى في عمرها–، وأخي وأخواتي الأعزاء، وشيوخي، وأساتذتي الفضلاء، وينفع به كاتبه، وقارئه، وكل ناظر فيه، ومستفيد منه؛ إنه ﷻ ولي ذلك، والقادر عليه، وهو ﷻ حسبي، ونعم الوكيل. وصل اللهم، وسلم، وبارك على سيدنا محمد ﷺ، وعلى آله، وصحبه ﷺ، ومَنْ اتبعهم بإحسان إلى يوم الدين. **وآخر دعوانا: أن الحمد لله رب العالمين.**

الباحثة

الفصل الأول

مفتاح التعامل مع النظم القرآني

المبحث الأول: حقيقة وصف عربي.

المبحث الثاني: ضوابط دراسة عناصر النظم، وفهمه.

مدخل إلى الدراسة

لما كان مناط الإعجاز القرآني متمثلا – في أقوى أوجهه – في نظمه، ومتعلقا بسبكه، وصورة تركيبه؛ فقد عني به العلماء، ووجهوا أنظارهم إليه، وصرفوا همتهم في تمعنه، وسخروا ملكاتهم في الوقوف عليه، والبحث عن أسراره، والغوص في أغواره، والاغتراف من فيضه، وولوج شرف ساحته.

ويعد فارس هذا الميدان، هو الإمام عبد القاهر الجرجاني؛ فقال مبينا حقيقة النظم، ومشيدا به: " أما (نظمُ الكَلِم): فهو نظمٌ يعتبرُ فيه حالُ المنظوم، بعضهُ معَ بعضٍ، وليسَ هو (النَّظم) الذي معناهُ: ضمُّ الشيء إلى الشيء، كيف جاء، واتفق. ولذلك؛ كان عندهم نظيرا للنسج، والتّأليفِ، والصياغةِ، والبناءِ، والوَشْيِ، والتحبير، وما أَشبَه ذلك، مما يُوجب اعتبارَ الأجزاءِ بَعْضِها معَ بعضٍ؛ حتى يكونَ لوضعِ كلِّ حيثُ وُضع، علةٌ تَقْتَضي كونَه هناك، وحتى لو وُضِع في مكان غيره؛ لم يصلح. إذا عرَفْتَه؛ عرفْتَ أنْ ليس الغَرضُ بنَظْم الكَلِم: أَنْ توالَتْ ألفاظُها في النُّطق، بل أَنْ تناسَقَتْ دلالتُها، وتلاقتْ مَعانيها، على الوجهِ الذي اقتضاهُ العقلُ. وكيف يُتَصَّور أنْ يُقصَد به إلى التوالي في النُّطق، بعد أن ثَبَتَ أنّهُ نظْمٌ يعتبرُ فيه حالُ المنظوم بعضهُ معَ بعضٍ، وأنه نَظيرُ الصَّياغةِ، والتَّحْبِير، والنَّقشِ، وكلِّ ما يُقصَد به التَّصويرُ، وبعْدَ أن كنَّا لا نَشكُّ في أنْ لا حال لِلفظةٍ معَ صاحبتها تُعْتَبر؛ إذا أنتَ عزلْتَ دلالَتَهما جانبا؟ وأَيُّ مساغٍ للشكَّ في أنَّ الأَلفاظَ لا تستحقُّ من حيثُ هي ألفاظٌ، أن تنظم على وجه دون وجه؟ " [1].

---

[1] دلائل الإعجاز، لعبد القاهر الجرجاني: صـ ١٤٩ وما بعدها بتصرف.

ففهم منه: أن " النظم، هو: تأليف الكلمات، مترتبة المعاني، متناسقة الدلالات؛ على حسب ما يقتضيه العقل، لا تواليها في النطق، وضم بعضها إلى بعض كيفما اتفق، بخلاف نظم الحروف؛ فإنه تواليها في النطق، من غير اعتبار معنى يقتضيه " (١).

ثم جاء الإمام الراغب؛ فقال مفصلا: " إن الإعجاز قد ذكر في القرآن على وجهين: **أحدهما:** إعجاز متعلق بفصاحة، **والثاني:** بصرف الناس عن معارضته: فأما الإعجاز المتعلق بالفصاحة: فليس يتعلق ذلك بعنصره الذي هو: اللفظ، والمعنى، وذلك؛ أن ألفاظه ألفاظهم، ولذلك؛ قال تعالى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ [يوسف:٢]. وقال سبحانه: ﴿الٓمٓ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١-٢]؛ تنبيها على أن هذا الكتاب مركب من هذه الحروف التي هي مادة الكلام. ولا يتعلق -أيضا- بمعانيه؛ فإن كثيرا منها موجود في الكتب المتقدمة، ولذلك؛ قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٦]، وقال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [طه: ١٣٣]، وما هو معجز فيه من جهة المعنى، كالإخبار بالغيب، فإعجازه ليس يرجع إلى القرآن بما هو قرآن، بل هو لكونه خبرا بالغيب. فإذا بالنظم المخصوص؛ صار القرآن قرآنا. كما أنه بالنظم المخصوص؛ صار الشعر شعرا، أو الخطبة خطبة. فالنظم صورة القرآن، واللفظ والمعنى عنصره، وباختلاف الصور؛ يختلف حكم الشيء واسمه لا بعنصره، كالخاتم والقرط والخلخال، تختلف أحكامها وأسماؤها؛ باختلاف صورها لا بعنصرها الذي هو الذهب والفضة، فإذا ثبت هذا؛ ثبت: أن الإعجاز المختص بالقرآن متعلق بالنظم المخصوص. **وبيان**

(١) الإيضاح في علوم البلاغة: ١ / ٣١.

كونه معجزا: هو أن نبين نظم الكلام، ثم نبين أن هذا النظم مخالف لنظم سائره، فنقول: لتأليف الكلام خمس مراتب: **الأولى:** ضم حروف التهجي بعضها إلى بعض؛ حتى يتركب منها الكلمات الثلاث: الاسم، والفعل، والحرف. **والثانية:** أن يؤلف بعض ذلك مع بعض؛ حتى يتركب منها الجمل المفيدة، وهي النوع الذي يتداوله الناس جميعا في مخاطباتهم، وقضاء حوائجهم، ويقال له: المنثور من الكلام، **والثالثة:** أن يضم بعض ذلك إلى بعض ضما له مبادئ ومقاطع، ومداخل ومخارج، ويقال له: المنظوم، **والرابعة:** أن يجعل له في أواخر الكلام مع ذلك تسجيع، ويقال له: المسجع. **الخامسة:** أن يجعل له مع ذلك وزن مخصوص، ويقال له: الشعر. وبالحق صار كذلك: فإن الكلام إما منثور فقط، أو مع النثر نظم، أو مع النظم سجع، أو مع السجع وزن، والمنظوم: إما محاورة، ويقال لها: الخطابة، وإما مكاتبة، ويقال لها: الرسالة، وأنواع الكلام لا تخرج عن هذه الجملة. ولكن من ذلك نظم مخصوص. والقرآن حاو لمحاسن جميعه بنظم ليس هو نظم شيء منها؛ بدلالة أنه لا يصح أن يقال: القرآن رسالة، أو خطابة، أو شعر، كما يصح أن يقال: هو كلام، ومَنْ قرع سمعه؛ فصل بينه وبين سائر النظم "[1].

قلت: وحين نتعامل مع النظم القرآني؛ لا بد من الأخذ في الاعتبار أن كل لبناته – سواء أكان اسمية، أم فعلية، أم حرفية– إنما قد جاءت مستقرة في مقامها، متمكنة في قرارها، مصبوغة بطابع سياقها، معجزة بيانية في نظمها، وأنه قد بلغت الكلمة القرآنية في نظمها المقام الأول في الإعجاز

[1] تفسير الراغب: ١ / ٤٤ وما بعدها بتصرف. وينظر روح المعاني: ١ / ٣٤.

البياني، فهي سيدة النظم، وعمود بنائه، ودليل فصاحته، وثَبْتُ بلاغته، وبرهان إعجازه.

ومن ثَمَّ قيل: " وإذا نظر المفسر البارع، في فنون البلاغة، المتذوق لجمال الكلام، وأساليبه، إلى غريب القرآن، وسائر كلماته، وألفاظه، بمنظار البلاغة، وجمال الكلام؛ وجد فيها جمالا، وفصاحة، يصل بمداومة النظر فيهما، إلى كشف إعجاز القرآن، في: كلماته، ومفرداته، كما هو معجز، في جمله، وآياته. وقد شهد أئمة العربية الأجلاء: أن ألفاظ القرآن، هي أفصح كلام العرب، وأعلاها جمالا، وأنسا، وبعدا عن وحشيّ الكلام، **وحسبنا في هذا: قول الإمام الراغب** " [1] .

حيث قال منوها بمكانة المفردة، ومشيدا بعلو شأنها: " إن أول ما يحتاج أن يشتغل به من علوم القرآن: العلوم اللفظية، ومن العلوم اللفظية: **تحقيق الألفاظ المفردة؛** فتحصيل معاني مفردات ألفاظ القرآن في كونه من أوائل المعاون، لمَنْ يريد أن يدرك معانيه، كتحصيل اللّبن في كونه من أول المعاون في بناء ما يريد أن يبنيه، وليس ذلك نافعا في علم القرآن فقط، بل هو نافع في كلّ علم من علوم الشرع. **فألفاظ القرآن:** هي لبّ كلام العرب، وزبدته، وواسطته، وكرائمه، وعليها اعتماد الفقهاء، والحكماء، في أحكامهم، وحكمهم، وإليها مفزع حذّاق الشعراء، والبلغاء، في نظمهم، ونثرهم، وما عداها، وعدا الألفاظ المتفرّعات عنها، والمشتقات منها هو بالإضافة إليها،

---

[1] علوم القرآن الكريم، لنور الدين محمد عتر الحلبي: صـ ٢٦١ وما بعدها بتصرف يسير.

كالقشور، والنوى، بالإضافة إلى أطايب الثمرة، وكالحثالة، والتبن، بالإضافة إلى لبوب الحنطة " [١].

وقال الباقلاني مقررا عظيم شأنها: " الكلام يتبين فضله، ورجحان فصاحته؛ بأن تذكر منه الكلمة في تضاعيف كلام، فتأخذها الأسماع، وتتشوف إليها النفوس، ويرى وجه رونقها باديا غامرا سائر ما تقرن به، كالدرة التي ترى في سلك من خرز، وكالياقوتة في واسطة العقد. **وأنت ترى الكلمة من القرآن** يتمثل بها في تضاعيف كلام كثير، وهي غرة جميعه، وواسطة عقده، والمنادي على نفسه بتميزه وتخصصه، برونقه وجماله " [٢].

وأعني بمفتاح التعامل مع النظم القرآني هنا: ذلك السبيل الذي يسلك، والمَعْلَمُ الذي من خلاله يسترشد؛ للوقوف على سر بيانه، وبلوغ حقيقة إعجازه.

ولا مناص من الإقرار بأن هذا المفتاح إنما يكمن في لسان التنزيل، المتمثل في اللغة العربية، فمن أراد أن يفهم كتابا ما؛ لزمه أولا معرفة لغته، والعلم بأساليب لسانه، والوقوف على دلالات كلماته، والإحاطة بحقيقة استعمالاتها... وغير ذلك مما هو من مقتضيات فهمه، وسبيل بلوغه. والحال هذه بالنسبة للقرآن الكريم؛ فلا سبيل للوصول إلى فهمه، وبلوغ مراداته إلا بمعرفة لغته، وبلاغة أساليبها، وعناصر تركيبها، ووجه نظمها،... إلخ.

---

[١] المفردات، للراغب: صـ ٥٤ وما بعدها بتصرف يسير.

[٢] إعجاز القرآن، للباقلاني: صـ ٤٢ بتصرف يسير.

وقد صرح الحق جل جلاله في عشر مواضع: بأن لغة القرآن، إنما هي العربية، وهي على النحو التالي:

١. **قَالَ جَلَّ ذِكْرُهُ:** ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف:٢].

٢. **وقال عز اسمه:** ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴾ [الرعد: ٣٧].

٣. **وقال جلت قدرته:** ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [النحل: ١٠٣].

٤. **وقال تبارك وتعالى:** ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾ [طه: ١١٣].

٥. **وَقَالَ تقدست أسماؤه:** ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء:١٩٥].

٦. **وقال جل شأنه:** ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الزمر: ٢٨].

٧. **وقال عز سلطانه:** ﴿ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [فصلت: ٣].

٨. **وقال سبحانه وتعالى:** ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴾ [الشورى:٧].

٩. **وقال تعالى اسمه:** ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الزخرف: ٣].

١٠. **وقال عز شأنه:** ﴿ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأحقاف: ١٢].

هذا: وقد جاء وصف عربي في سياقاته المتعددة، على آكد وجه، وأبلغ بيان. وتمحورت وظيفته في أغراض متنوعة، تؤكد في مجملها سبب إيثاره، وتعلن حيثية تمكنه.

فمساق الآية الأولى: إثبات التمكن من فهمه، والقدرة على تحصيل العلم، والإبانة عن القصة المسئول عنها: لفظا، ومعنى [١]. **ومساق الثانية:** التنويه بعلو شان القرآن: لفظا، ومعنى، مدمجا بالتعريض بسوء تلقي المشركين له مع أنهم أولى الناس بحسن تلقيه [٢]. **ومساق الثالثة:** الرد على شبهات منكري النبوة، وإبطال مزاعمهم حول القرآن [٣]. **ومساق الرابعة:** التنويه بشأن القرآن، والامتنان على العرب [٤]. **ومساق الخامسة:** بيان مقومات اللغة، وخصائصها، وأسباب إيثارها لسانا للوحي، وإقامة الحجة [٥]. **ومساق السادسة:** التنويه بالقرآن وإرشاده، والتعريض بتسفيه أحلام الذين

---

(١) ينظر التفسير الكبير: ١٨ / ٤١٦. ينظر التحرير والتنوير: ١٢ / ١٠٢.

(٢) ينظر التحرير والتنوير: ١٣ / ١٥٩.

(٣) ينظر التفسير الكبير: ٢٠ / ٢٧١. ينظر التحرير والتنوير: ١٤ / ٢٨٦.

(٤) ينظر التفسير الكبير: ٢٢ / ١٠٣. ينظر التحرير والتنوير: ١٦ / ٣١٣.

(٥) ينظر التفسير الكبير: ٢٤ / ٥٣٢ وما بعدها. ينظر التحرير والتنوير: ١٩ / ١٩٠.

كذبوا به، وأعرضوا عن الاهتداء بهديه [١]. **ومساق السابعة:** التحدي، ووصف القرآن بصفة الإعجاز [٢]. **ومساق الثامنة:** الامتنان، والتحذير [٣]. **ومساق التاسع:** التنويه بشأن القرآن [٤]. **ومساق العاشرة:** إبطال مزاعم الظالمين في القرآن، مع التنويه به ومزيته، والنعي عليهم [٥].

قلت: وسيتضح أثناء البحث أن مدلولات مادة (ع ر ب) إنما جاءت في كل سياقاتها تخدم تلك الأغراض، وتبرهن عليها، مما يؤكد تمكن الوصف في نظمه، ويقرر إعجاز بيانه.

ولسان العربية كما قرر الإمام الشافعي – رحمه الله تعالى – : " من أوسع الألسنة مذهبا، وأكثرها ألفاظا " [٦] . ومن ثَمَّ فلابد أن يؤخذ في الاعتبار: أن اللغة العربية هي مفتاح التعامل مع القرآن الكريم.

قلت: وحتى يتم الوقوف على تلك الحقيقة، وما يترتب عليها؛ لا بد من معايشة مفهوم مادة: (ع ر ب) في ضوء معطيات لغته، واستعمالات لسانه؛ ليتبين في ظله مدى السعة التعبيرية للغة العربية، ويعلن من خلاله: سر اختيارها؛ لتكون لغة التنزيل، ويتقرر في ضوئه: أنها مفتاح إعجازه البياني.

---

(١) ينظر التحرير والتنوير: ٢٣ / ٣٩٦ وما بعدها.

(٢) ينظر التحرير والتنوير: ٢٤ / ٣١٢.

(٣) ينظر البحر المحيط: ٩ / ٣٢٤.

(٤) ينظر التحرير والتنوير: ٢٥ / ١٥٩.

(٥) ينظر التحرير والتنوير: ٢٦ / ٢٤.

(٦) الرسالة، للإمام الشافعي: صـ ٣٤ .

المبحث الأول

حقيقة وصف العربية

انطوى هذا الوصف على كثير من الدلالات، وحمل في طياته العديد من المعاني الوافرات، هي الأدخل في الكشف عن معناه، وبيان حقيقته، وإثبات مقوماته، وإعلان خصائصه... إلخ. وللوقوف على ذلك؛ أستحضر مادته (ع ر ب) عند أصحاب المعاجم، وأرباب اللغة.

فقال الخليل بن أحمد: " (عرب): العرب العاربة: الصريح منهم. وأعرب الرجل: أفصح القول، والكلام، وهو عربانيّ اللسان، أي: فصيح. وَأَعْرَبَ الْفَرَسُ: خَلَصَتْ عَرَبِيَّتُهُ، وَفَاتَتْهُ الْقِرْفَةُ [1]. وَالْإِبِلُ الْعِرَابُ، هِيَ الْعَرَبِيَّةُ. وَالْعَرَبُ الْمُسْتَعْرِبَةُ: هُمُ الَّذِينَ دَخَلُوا بَعْدُ فيهم؛ فَاسْتَعْرَبُوا، وَتَعَرَّبُوا. والمرأة العَروُبُ: الضحّاكة، الطّيّبةُ النّفس. وهنّ العرب. والعَرَبُ: النّشاطُ. وعرب الرجل، يعرب، عربا؛ فهو عَرِبٌ، وكذلك الفرس عرب، أي: نشيط. وعرب

---

[1] قال ابن فارس: " (قَرَفَ): (الْقَافُ)، وَ(الرَّاءُ)، وَ(الْفَاءُ): أَصْلٌ صَحِيحٌ، يَدُلُّ عَلَى مُخَالَطَةِ الشَّيْءِ، وَالِالْتِبَاسِ بِهِ، وَادِّرَاعِهِ. وَأَصْلُ ذَلِكَ: الْقَرْفُ، وَهُوَ: كُلُّ قَشْرٍ. وَمِنَ الْبَابِ: اقْتَرَفْتُ الشَّيْءَ: اكْتَسَبْتُهُ؛ وَكَأَنَّهُ لَابَسَهُ، وَادَّرَعَهُ. وَكَذَلِكَ قَوْلُهُمْ: فُلَانٌ يُقْرَفُ بِكَذَا، أَيْ: يُرْمَى بِهِ. وَيُقَالُ لِلَّذِي يُتَّهَمُ بِالْأَمْرِ: الْقِرْفَةُ، يَقُولُ الرَّجُلُ؛ إِذَا ضَاعَ لَهُ شَيْءٌ: فُلَانٌ قِرْفَتِي، أَيِ: الَّذِي أَتَّهِمُهُ، كَأَنَّهُ قَدْ أَلْبَسَهُ الظِّنَّةَ. وَبَنُو فُلَانٍ قِرْفَتِي، أَيِ: الَّذِي عِنْدَهُمْ أَظُنُّ طِلْبَتِي، وَبُغْيَتِي. وَقِيَاسُهُ: مَا قَدْ ذَكَرْنَاهُ. وَالْفَرَسُ الْمُقْرِفُ: الْمُدَانِي الْهُجْنَةُ. يَقُولُونَ: إِنَّ الْمُقْرِفَ: الَّذِي أبوه هَجِينٌ، وَأُمُّهُ عَرَبِيَّةٌ ". مقاييس اللغة: (ق ر ف): ٥/ ٧٣ وما بعدها بتصرف. وقد سبقه الخليل. ينظر العين (ق ر ف): ٥ / ١٤٦ وما بعدها. ولكني آثرت النقل عن ابن فارس؛ لكونه أكثر إيضاحا، وأثمر تناولا.

الرجل، يعرب، عربا؛ فهو عَرِبٌ، أي: مُتْخَم. وعربت مَعِدَتُه، وهو: أن يدوي جوفه من العلف. والتّعريب: أن تُعَرَّبَ الدّابّة؛ فَتُكْوَى على أشاعرها في مواضع، ثم يُبْزَغُ بمبزَغٍ؛ ليشتدّ أشعره. وعرّبت عن فلان، أي: **تكلّمت عنه بحجة** " [1].

وقال ابن فارس مؤصلا: " (عَرَبَ): (الْعَيْنُ)، وَ(الرَّاءُ)، وَ(الْبَاءُ): أُصُولٌ ثَلَاثَةٌ: **أَحَدُهَا:** الإبانة، وَالْإِفْصَاحُ. **وَالْآخَرُ:** النَّشَاطُ، وَطِيبُ النَّفْسِ. **وَالثَّالِثُ:** فَسَادٌ فِي جِسْمٍ، أَوْ عُضْوٍ. **فَالْأَوَّلُ:** قَوْلُهُمْ: أَعْرَبَ الرَّجُلُ عَنْ نَفْسِهِ؛ إِذَا بَيَّنَ، وَأَوْضَحَ. وَإِعْرَابُ الْكَلَامِ- أَيْضًا- مِنْ هَذَا الْقِيَاسِ؛ لِأَنَّ بِالْإِعْرَابِ يُفْرَقُ بَيْنَ الْمَعَانِي فِي: الْفَاعِلِ، وَالْمَفْعُولِ، وَالنَّفْيِ... وَسَائِرِ أَبْوَابِ هَذَا النَّحْوِ مِنَ الْعِلْمِ. فَأَمَّا الْأُمَّةُ الَّتِي تُسَمَّى الْعَرَبُ: فَلَيْسَ بِبَعِيدٍ أَنْ يَكُونَ سُمِّيَتْ عَرَبًا، مِنْ هَذَا الْقِيَاسِ؛ **لِأَنَّ لِسَانَهَا: أَعْرَبُ الْأَلْسِنَةِ، وَبَيَانُهَا: أَجْوَدُ الْبَيَانِ.** وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى هَذَا: قَوْلُ الْعَرَبِ: مَا بِهَا عَرِيبٌ، أَيْ: مَا بِهَا أَحَدٌ، كَأَنَّهُمْ يُرِيدُونَ: مَا بِهَا أَنِيسٌ يُعْرِبُ عَنْ نَفْسِهِ. **وَالْأَصْلُ الْآخَرُ:** الْمَرْأَةُ الْعَرُوبُ: الضَّحَّاكَةُ الطَّيِّبَةُ النَّفْسِ، وَهُنَّ الْعُرُبُ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ فَجَعَلْنَهُنَّ أَبْكَارًا . عُرُبًا أَتْرَابًا ﴾ [الواقعة:٣٦-٣٧]، أي: هُنَّ الْمُتَحَبِّبَاتُ إِلَى أَزْوَاجِهِنَّ. وَالْعَرْبُ، بِسُكُونِ (الرَّاءِ): النَّشَاطُ. (وَالْعَرَبُ): الْأَثَرُ، بِفَتْحِ (الرَّاءِ). يُقَالُ مِنْهُ: عَرِبَ، يَعْرَبُ، عَرَبًا. **وَالْأَصْلُ الثَّالِثُ:** قَوْلُهُمْ: عَرِبَتْ مِعْدَتُهُ؛ إِذَا فَسَدَتْ، تَعْرَبُ، عَرَبًا. وَيُقَالُ مِنْ ذَلِكَ: امْرَأَةٌ عَرُوبٌ، أَيْ: فَاسِدَةٌ " [2].

---

[1] العين (ع ر ب): ٢ / ١٢٨ وما بعدها بتصرف.

[2] مقاييس اللغة (ع ر ب): ٤ / ٢٩٩ – ٣٠١ بتصرف.

هذا: وقد علق أ.د/ فاضل السامرائي على الأصل الثالث؛ فقال: " سمي إعرابا؛ لأنه تَغَيُّرٌ يلحق أواخر الكلم، من قولهم: (عربت معدة الفصيل)؛ إذا تغيرت. فإن قيل: العرب في قولهم: (عربت معدة الفصيل)، معناه: الفساد، وكيف يكون الإعراب مأخوذا منه؟ قيل: معنى قولك: أعربت الكلام، أي: أزلت عربه، وهو فساده، وصار هذا كقولك: أعجمت الكتاب؛ إذا أزلت عجمته، وشكيت الرجل؛ إذا أزلت شكايته... وهذه (الهمزة) تسمى: (همزة) السلب " [1].

وقال الإمام الراغب: " والعَرَبِيُّ: المفصح، والإِعْرَابُ: البيانُ. وإِعْرَابُ الكلامِ: إيضاح فصاحته، والعَرَبيُّ: الفصيح البيّن من الكلام، قال تعالى: قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت:٣]. وقال جل جلاله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ [الرعد:٣٧]. والمُعْرِبُ: صاحب الفرس العَرَبِيّ. وقوله عز سلطانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ﴾ [الرعد:٣٧]، معناه: مفصحا، يحقّ الحقّ، ويبطل الباطل. وقيل: معناه: شريفا، كريما. وقيل: معناه: مُعْرِبا من قولهم: عَرّبُوا على الإمام. ومعناه: ناسخا لما فيه، من الأحكام. وقيل: منسوب إلى النّبيّ العربيّ ﷺ. والعَرَبِيُّ إذا نسب إليه؛ قيل عَرَبِيٌّ، فيكون لفظه كلفظ المنسوب إليه، و(يَعْرُبُ) قيل: هو أوّل مَنْ نقل السّريانيّة إلى العَرَبِيَّةِ؛ فسمّي باسم فعله " [2].

---

[1] معاني النحو، للأستاذ الدكتور/ فاضل صالح السامرائي: ١ / ٢٢ .

[2] المفردات (ع ر ب): صـ ٥٥٧ بتصرف.

قلت: فتبين مما سبق: أن مادة (ع ر ب) تحمل في طياتها الدلالات التالية: الصراحة، فصاحة القول، واللسان، الكلام البين، خلوص العربية، البيان، الإيضاح، الجودة، الإبانة، الإفصاح، الإيضاح، الضحك، طيب النفس، والتحبب إليها، الإيناس، النشاط، الأثر، التكلم بالحجة، إزالة الخلل (التخمة)، والفساد، الفرس العربي، وصاحبه الخالص من المخالطة، والالتباس، إحقاق الحق، إبطال الباطل، الشرف، الكرم، النسخ لما فيه من أحكام، النسبة إلى النبي العربي ﷺ ...إلخ.

التوسع في المعنى؛ بتوظيف الدلالات اللغوية، واستحضار الاستعمالات العربية:

قلت: التوسع في المعنى؛ بتوظيف ما انطوت عليه المفردة من معان، وما انفردت به من دلالات، وما اشتهرت به من استعمالات، وابتعثته من إشاراتها، وفاضت به من إيحاءاتها – **أمر** مراد، ومتعين، له وقعه، ودلالته، وبالغ أثره، وعمق وظيفته؛ إذ به يتأكد سبب إيثارها، ويُكْشَفُ عن سرها، ويفصح عن وجه تعينها مقاما، وحيثية استقرارها حالا، وانسجامها مع عناصرها نظما؛ مما يتقرر في ضوئه: استحالة الاستغناء عنها، أو استبدالها بغيرها؛ بلوغا لإثبات سمو نظمها القرآني، وروما لتأكيد وجه إعجازها البياني.

فبعض ذه المدلولات أسهم في الكشف عن حقيقتها؛ فأعلن أنها أشرف اللغات، وأفصحها؛ بما أنيط بها، وما أسند إليها، فأعلن: أن مبناها: فصيح القول، ومناطها: البين، والبليغ من الكلام، مع تحقق وضوح الدلالة ، وسعة التعبير، وسطوع الحجة، وانتفاء الشبهة.

وبعضها أماط اللثام عن بواعث اختيارها؛ لتكون لغة التنزيل؛ ببيان أنها من مقتضيات حال التحدي، ومستدعيات ثبوت الإعجاز؛ بما ثبت لها من البيان الرائق، والمعنى الفائق؛ كما أنها لسان مَنْ أنزل عليهم القرآن، وثبت تمكنهم منه، فهي وصف لصاحب هذا اللسان كما أنها وصف للقرآن.

ومن هنا كان مدلولا: النسب إلى النبي ﷺ، وخلوص العربية؛ لهما وقعهما الإيحائي؛ إذ بهما يتقرر إبطال زعم الزاعمين: أن القرآن من تعليم

البشر، بل هو بهذه النسبة تنزيل من العزير الحكيم.

وبعضها أفصح عن: **خصائصها، وأعلن وظيفتها، وأشاد بمقوماتها، ودعائمها، بما تقرر لها من كونها أبلغ اللغات، وأشرفها، وأحسنها فصاحة، كما أنها مبعث الجودة في البيان، ومنبع السلامة من التباس الدلالة، وسبيل الخلوص من الخلط، وإزالة الخلل، والفساد، وطريق تمام الإفصاح عن المراد.**

وبعضها حمل بواعث الامتنان على العرب؛ إذ نزل الوحي بلسانهم، وتمكنوا من فهمه، ووقفوا على سمو نظمه، وعجيب تركيبه، وحسن نسجه، وبديع بيانه.

ومن ثَمَّ تعلن مسئوليتهم، ويتقرر دورهم في فهمه أولا، وإبلاغه ثانيا، والمحافظة عليه، والذب عنه ثالثا... إلخ.

ومن ثُمَّةْ كان لمدلول: صاحب الفرس العربي الأصيل، شديد الوقع، وبالغ الأثر؛ بما حقق من بواعث الامتنان، وروافد الفضل والإحسان؛ إذ حمل في مطاويه معنى: الخالي من شائبة الاختلاط، الثابت له الصدارة، المقرر له التقدم، الجدير بالفوز؛ مما يوحي بسبق المتصف بذلك الوصف، وصدارة أهله؛ إذا ما تمكسوا بلغتهم، ورجعوا إلى تراثهم، وفَعَّلُوا ملكاتهم، وسخروا نعمة الله تعالى عليهم أن جاء كلامه سبحانه بلسانهم الذي اصطفي؛ ليكون مفتاح التعامل مع رسالة السماء؛ ومن ثَمَّ فهم الواسطة التي يتأتى بها فهم كلامه تعالى، وإبلاغه إلى الخلق.

وبعضها نوه بمتعلقه، ورغب في الإذعان له، والعمل بما فيه؛ حيث بين أنه: الشريف، الكريم، وحيثيات كونه كذلك تكمن في أنه المتقدم سبقا، المهيمن حكما، الذي يحق الحق، ويبطل الباطل، الناسخ لما فيه من

الأحكام، المتحدث بالحجة، الخالص من الشبهة، المزيل فسادا، الكاشف عطبا، المثبت فصاحة، والمؤكد بيانا، الثابت له الحكم، والفصل، المقرر له الهيمنة، والبقاء. **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[البقرة: ١-٦]. **وقَالَ سُبْحَانَه:** ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ ... ﴾ [المائدة: ٤٨].

وبعضها أوغل ترغيبا في الاتباع، وحثا على الطاعة؛ فأكد مكانة اللغة عند أهلها؛ بما حمله ذاك الوصف من برهان ثبوت حب اللغة عندهم، وها قد نزل الوحي بما يحبون، وبه يتفاخرون، وإليه يتسابقون، وقد انطوى على ما يحقق لهم الصدارة، ويحفظ لهم سامق المكانة، يسهم في هذا **مدلولات:** التحبب، وطيب النفس، والضحك، وجودة البيان، وفصاحة اللسان، مما يرغب في الإقبال عليه، ويبعث على النهل من فيضه.

كما أن مدلول: الأثر، له بعده الدلالي، وعمقه التعبيري؛ إذ يكشف عن كون اللغة عند أهلها هي الأثر الذي يستدل عليهم به، وتعلو مكانتهم من خلاله، وتسمو رقيا بارتسامه؛ فهي سبب تفوقهم، وعنوان تقدمهم، ومبعث صدارتهم، وجل اعتمادهم، ومبتغى صنعتهم، ومدعى فخرهم، وبرهان زعامتهم...إلخ. وفي هذا من التناسب مع ما كانوا عليه من التفاخر بها، والمباراة من خلالها، ما لا يخفى!

هذا: **ومدلول**: **النشاط** له وقعه الدلالي، وأثره الإيحائي؛ فيسهم في التأكيد على إعجازها، وهيمنتها، وصلاحيتها لكل زمان ومكان، وبرهانية بلاغتها، وسموها؛ حيث إنها لغة فضفاضة، تتميز بكثرة المدلولات، وسعة

الدلالات، وتعدد المعاني، وتنوع الإيحاءات، والمناحي؛ فهي ثرية المعاني، واسعة الدلالة، غنية التعبير، صادقة الإيحاء، متعددة الإشارة.

وبعضها هو الأدخل في إقامة الحجة على العرب؛ إذ أثبت لهم من الفصاحة، والبلاغة، وجودة البيان، ما من شأنه الإقرار به، والإذعان له.

وها قد تحداهم إلى أن يأتوا بمثل هذا الكلام البين، الواضح الفصاحة، مع ما توفر عندهم من الأدوات والملكات، وعجزوا أتم العجز، وأكمله؛ فقامت عليهم الحجة، وقطعت عنهم الأعذار بما لا غاية وراءه!

وبذلك تقرر: أن هذا الوحي، ثابت له الصدارة، ومحكوم له بالسبق، يُعَرِّب على غيره، فهو الحكم، والمهيمن لما سواه، مهما بلغوا في الفصاحة والبلاغة والبيان، ومن ثَمَّ كان من مقتضيات العقل، وسلامة النفوس: الإذعان له، والإقرار بجلاله، والاعتراف بحقيقة إعجازه!

هذا: ولما كانت عناصر النظم هي عربية اللسان، محلها: القرآن؛ فلا بد من دراستها في ضوء لغتها، وفهمها في إطارها، فيثبت لها: ما تميزت به لغتها، **من**: عمق الدلالة، وصدق التعبير، وسعة الاستعمال، ودقة الإيحاء، وفيض الإشارة،... إلخ.

ومن ثَمَّ فهي لا تنفك عن مدلولها اللغوي، واستعمالها العربي؛ حيث كانت مطاويها هي الأدخل في التعبير عنها، وارتسام حقيقتها، وإعلان: خصائصها، وبالتالي فلا بد من استحضار جميع مدلولاتها، وتفعيل كافة استعمالاتها؛ ما أمكن ذلك.

وهذا ما يتناغم مع مكانة اللغة العربية، ويتسق لسعة مساحتها التعبيرية، ويستجيب لدقة مفرداتها، وندرة دقائقها المعنوية.

وفي هذا الصدد قال أ.د/ فاضل السامرائي: " إنه لا شك أن الذي عنده

شيء من المعرفة، باللغة العربية، وأسرارها؛ يعلم دقة هذه اللغة العظيمة، في التعبير عن المعاني، وسعة مساحتها التعبيرية، وقدرتها الهائلة على توليد المعاني، وعلى التوسع فيها، وتفوقها الفني؛ حتى تصل إلى درجة الإعجاز "[1].

قلت: ومن ثَمَّتْ فيتمهد أن كل مفردة (سواء أكانت اسمية، أم فعلية، أم حرفية) موسومة بكونها عربيةً، إنما هي تعرب عن نفسها، وتكشف عن حقيقتها، وتميط اللثام عن كوامن معانيها، وتفصح عن مرادها، وتبين بدقة مكنونات طياتها، وترتسم أسبابها، وتتكلم بالحجة عن نفسها، وتحمل في مطاويها بواعث اختيارها، فهي واردة برسالة إلى البشرية؛ ومن ثمت اتسمت العربية **بمدلولات:** النشاط، إزالة الخلل، والفساد، التكلم بالحجة، الخلوص من الخلط، والالتباس...إلخ؛ لأن مفرداتها لا تبين المعاني فحسب؛ بل ترسخ جذورها، وتنطلق بدلالتها، وتضرب بفروعها، وتمتد بظلالها، حاملة الكثير من المعاني، والعديد من الإيحاءات، **والبديع من:** عبير الفيوضات، وبعد الإشارات، وسعة التلويحات.

مما يقرر: ضرورة توظيف جميع الدلالات اللغوية، واستحضار كافة الاستعمالات العربية؛ توليدا للمعاني، ومراعاة لإثبات الإعجاز البياني؛ استجابة لمقام التحدي القرآني.

قلت: وفي فلك تلك الدلالات، والاستعمالات، وكينونة تي المعاني، والإيحاءات، وإطار ذه اللطائف، والإشارات – طاف السادة المفسرون حول وصف (عربي) في النظم القرآني: توجيها، وشرحا، وتحليلا، واستنباطا... وغير ذلك، وهذا ما سيتضح في الفصل الثاني.

---

[1] الجملة العربية والمعنى، للأستاذ الدكتور/ فاضل صالح السامرائي: صـ ٥.

المبحث الثاني

ضوابط دراسة عناصر النظم، وفهمه

وأعني بالضوابط هنا: الطريق الذي يسلك في التعامل مع تلك العناصر (مفردات النظم)، والأسس التي يعتمد عليها في دراستها، **ويمكن تلخيص ذه الضوابط فيما يلي:**

أولا: أن لغة القرآن، إنما هي العربية. قَالَ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف:٢]. وَقَالَ تقدست أسماؤه: ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء:١٩٥]؛ ومن ثَمَّ فلابد أن يؤخذ في الاعتبار: أن اللغة العربية هي مفتاح التعامل مع القرآن الكريم، وعليه فلا يتأتى فهم أي مفردة، أو أسلوب إلا في ضوء معطياتها – كما سبق –.

ثانيا: الانطلاق في تي الدراسة من عقيدة راسخة، ويقين متجذر، يقضيان بأن النظم القرآني معجزة إلهية، ومن ثَمَّ فكل عنصر فيه ثابت له الإعجاز، الذي بدوره – أيضا – يقضي باستحالة الاستغناء عن أي مفردة في سياقها، أو إمكانية أن تحل أخرى محلها، أو تقديمها إذا ما أخرت، أو تأخيرها إذا ما قدمت على غيرها، أو سهولة تعديل أسلوب ورودها... وغير ذلك من الاحتمالات العقلية الممكنة لها.

ومن هنا يتقرر: أن الإعجاز متحقق للبنات النظم كله، سواء أكانت عناصره اسمية، أم فعلية، أم حرفية. وعليه؛ فلا يمكن القول بأن مفردة ما تساوي غيرها في دلالتها، أو استعمالاتها، أو أن تفسر كلمة بأخرى على سبيل أنها بمعناها، فيمكن أن تحل محلها، أو يستغنى عنها.

ثالثا: **السير في تناول الكلمة في السياق القرآني، في ضوء حقيقة، مؤداها: أن لكل مفردة قرآنية شخصيتها المستقلة، وهويتها الفذة، وخصائصها الفريدة، المميزة لها عما عداها، وإنما يتم إيثارها في سياقها دون غيرها؛ لدلالة استقلت بها، ومعان انطوت عليها، وإيحاءات استصحبتها، وإشارات ابتعثتها، واستعمالات اكتنفها، وغير ذلك من الخصائص التي توفرت لها دون غيرها، وميزتها عما عداها مما هو قريب منها في بابها، وجعلتها فريدة في سياقها، ومتمكنة في نظمها دون سواها؛ مما يفصح: عن سمو نظمها القرآني، ويجلي وجه إعجازها البياني**[1].

وإلا لو فرضنا جدلا أنه في وسع مفردة أخرى القيام بدورها؛ فما السر الذي بسببه تَمَّ إيثار المذكور على المفروض جدلا؟!

فمثلا قال الحق عز جلاله: ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ٤٤]. وقال جل شأنه: ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ ۖ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٨٤]. عندما أطالع ما قاله العلماء، والسادة المفسرون هنا؛ أجد أن ثمت اتفاقا بينهم على أن المراد بالتلاوة: القراءة [2]. كما يفسرون السبيل في كثير من مواضعه – إن لم تكن

---

(1) **ينظر في تقرير ذلك**: المفردة القرآنية في نظم الجملة الحالية، للباحثة: صـ ١٦ وما بعدها، و كذا صـ ١١٦ إلى آخر الرسالة.

(2) وقد فصلت ذلك في موطنه. ينظر المفردة القرآنية: صـ ٣١٤ وما بعدها. والفرق بين المفردتين يتجلى في ثنايا تناول الدلالة اللغوية للفعل (تتلون)، وتوظيفها. ينظر المفردة القرآنية: صـ ٣١٢ وما بعدها.

كلها – على أنه الطريق؛ فأنطلق من تساؤل طال دورانه في ذهني، واقتحامه خاطري، **فحواه:** أنه إذا كان هذا هو الحال، وكانت المفردة – هذه أو تلك – بمعنى أخرى، فما السر في إيثار التلاوة على القراءة؟! وما السر في تنوع التعبير بالطريق مرة، والسبيل أخرى؟! وهل يمكن استبدال المُفَسَّر بالمُفَسِّر؟! وهل ما تفيده مادة (ق ر أ)، و(ط ر ق)، هو عينه ما تفيده مادة (ت ل ا)، أو (ت ل و)، ومادة (س ب ل) [1] ؟! وما الذي يؤكد إعجازهما واقعا، كما هو متقرر اعتقادا، ومتجذر يقينا؟!

إذا قلنا: بجواز أن المفردتين بمعنى واحد؛ فعليه لا نستطيع إثبات الإعجاز البياني في المفردة المذكورة؛ إذ إنها في تلك الحالة ليست متعينة، وبالتالي ليست متمكنة في النظم؛ كيف وتَمَّتْ ما يساويها، ويمكن أن يحل محلها؟! كما أن هذا لا يفصح عن سبب إيثارها؟! ولا يبين لماذا لم تكن

---

[1] **قد فرق بينهما الإمام العسكري قائلا:** " الفرق بين: (الطريق), و(السبيل): السبيل اسم يقع على ما يقع عليه الطريق، وعلى ما لا يقع عليه الطريق؛ تقول: سبيل الله تعالى، وطريق الله سبحانه، وتقول: سبيلك أن تفعل كذا، ولا تقول: طريقك أن تفعل به، ويراد به: سبيل ما يقصده؛ فيضاف إلى القاصد، ويراد به: القصد. وقد يفرق بينهما: بأن السبيل أغلب وقوعا في الخير، ولا يكاد اسم الطريق يراد به الخير إلا مقترنا بوصف أو إضافة تخلصه لذلك " . معجم الفروق اللغوية، للعسكري: صـ ٣١٣ بتصرف.

قلت: وحتى يتم الوقوف على الفرق بين المفردتين؛ لا بد من دراسة الجذر اللغوي لهما، وبيان دلالته اللغوية، واستعمالاته العربية، وتوجيهها في ضوء ذلك، وتوظيفها في السياق الذي انطوى عليها.

(تقرؤون)، أو (طريقا) ابتداء؟! وبالتالي يظهر مَنْ يدعي زورا: إمكانية الاستبدال، وعروض التغيير في الكلام المعجز.

كما يجوز عليه: ادعاء: أن مادتي المفردتين بمعنى واحد، وهذا لا يليق باللغة العربية، واسعة اللسان، غنية الدلالة، ثرية المعاني، متعددة الاستعمال.

ومن ثَمَّ فتقوم الدراسة على تقرير مبدأ، **فحواه:** أن كل مفردة عربية مستقلة الدلالة، فريدة المعنى، فذة الاستعمال، متعينة في النظم، متمكنة في النسج، مقصودة في السبك، محددة في السياق، متطلبة في المقام، متسقة للمرام، مستجيبة لمقتضى الحال.

وإنما يتم إيثارها لمعنًى انطوت عليه، ودلالة استقلت بها دون سواها، مما هو محتمل عقلا في بابها، وهذا ما يتناسب مع طبيعة اللغة العربية، المتسمة بالفصاحة في اللفظ، والسعة في التعبير، والبلاغة في الأداء، كما أنها حمالة أوجه، متعددة الإيحاءات، متشعبة الإشارات، ثرية الفيوضات، عميقة المعاني، كثيرة الدلالات. وهذا – أيضا – مما يكشف عن كون التحدي القرآني قائما أبدا.

أما إذا قلنا: إن التلاوة بمعنى القراءة، أو السبيل بمعنى الطريق – مثلا – فما الذي يجعل التحدي قائما؟! وما الذي يحملنا على أن نحيد عن البحث في ذاتها، والغوص في أعماقها، والوقوف على دلالتها، واستحضار استعمالاتها، وغير ذلك مما يؤكد إلهية نظمها، ويقرر: سمو إعجازها ؟!

قلت: وإثبات هذا المبدأ ليس بدعا هنا، ولا من مستحدثات البحث، بل هذا ما عليه جُلُّ العلماء المعنيين بهذا المجال، أمثال: أصحاب (المعاجم)، وغيرهم.

وها هو الباقلاني يقرر هذا المعنى، ويدعمه؛ فيقول: " فأما نهج القرآن، ونظمه، وتأليفه، ورصفه؛ فإن العقول تتيه في جهته، وتحار في بحره، وتضل في وصفه. واعلم: أن هذا علم شريف المحل، عظيم المكان، قليل الطلاب، ضعيف الأصحاب، ليست له عشيرة تحميه، ولا أهل عصمة تفطن لما فيه. وهو أدق من السحر، وأهول من البحر، وأعجب من الشعر. وكيف لا يكون كذلك؟! وأنت تحسب أن وضع: (الصبح) في موضع (الفجر) يحسن في كل كلام، إلا أن يكون شعرا، أو سجعا؟ وليس كذلك؛ فإن إحدى اللفظتين قد تنفر في موضع، وتزل عن مكان، لا تزل عنه اللفظة الأخرى، بل تتمكن فيه، وتضرب بجيرانها، وتراها في مظانها، وتجدها فيه غير منازعة إلى أوطانها، وتجد الأخرى- لو وضعت موضعها- في محل نفار، ومرمى شراد، ونابية عن استقرار. فإن كنت لا تعرف الفصل الذي بين اللفظتين، على اختلاف مواقع الكلام، ومتصرفات مجاري النظام؛ لم تستفد مما نقر به عليك شيئا، وكان التقليد أولى بك، والاتباع أوجب عليك. ولكل شيء سبب، ولكل علم طريق، ولا سبيل إلى الوصول إلى الشيء من غير طريقه، ولا بلوغ غايته من غير سبيله " [1].

---

[1] إعجاز القرآن، للباقلاني: صـ ١٨٣ وما بعدها بتصرف.

قلت: فأعلن الإمام: أن كل مفردة مستقلة الدلالة، منفردة المعنى، لا يسع أخرى القيام مقامها، ولا يوافق مقتضى الحال على الاستعاضة عنها، أو استبدالها.

" وهذا الوجه مستوفى في كل القرآن، وفي كل آية منه، لا تحتاج إلى اختيار، وانتقاء؛ فكل كلمة في القرآن **فريدة**، في مكانها " [١].

ومن ثَمَّ قيل: من سمات النظم القرآني: " حسن اختيار ألفاظه، ودقة أدائها: واللغة العربية واسعة الثروة اللفظية؛ حتى لا يحيط بها إلا نبيّ، فاستحضار أحسن لفظ، وأنسبه؛ يحتاج إلى اطلاع على جميع ثروتها، ثم استحضار جميع ما يلائم الموقع من الألفاظ، ثم استعمال أنسبها، وأفصحها"[٢] . **مما يقرر: وجه إعجازها !**

رابعا: أن المعتبر في تناول عناصر النظم، ودراستها، ما هو منوط بها، ومعول عليها فيها، وهو الجذر اللغوي لبنائها؛ فيعتمد عليه في الكشف عن دلالة مفردات النظم؛ فيجدر تتبع دلالته– سواء أكانت حقيقية، أم مجازية [٣]–، واستقراء استعمالاته في مظانها، وكذا في مصادر التفسير، مع مراعاة أن الأصل في كل مفردات النظم [٤]: أن تستحضر، وتوظف كل

---

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، للرافعي: صـ ٢٦٣ وما بعدها بتصرف يسير.

(٢) علوم القرآن الكريم: صـ ٢٦٢.

(٣) هذا يتصور إذا كانت المفردة اسما، أو فعلا، أما إذا كانت حرفا؛ فيفهم معناه من خلال استعماله العربي.

(٤) قلت: المفردة – كما هو معلوم – تنقسم إلى: اسم، وفعل، وحرف. فعندما يتم تناولها بالشرح، والتحليل؛ يراعى في ذلك الشكل، والقالب الذي وردت فيه، دون التفريق بين الدلالة: سواء أكانت مفردة، أم مركبة؛ فتعامل كل منها كمفردة مستقلة، بملاحظة ==

مدلولاتها اللغوية في السياق، وتفعل كافة استعمالاته العربية، والإفادة منها؛ ما أمكن ذلك؛ استجابة لسعة التعبير، وعمق الدلالة، وسائر الخصائص الثابتة للغة العربية، ومن ثَمَّ لمفرداتها؛ توصلا إلى إثبات الإعجاز البياني في نظمها.

هذا ما لم يكن سبب خارجي يدعو إلى خلاف ذلك، يتأتى معرفته في ضوء نظم آخر، أو دليل عقلي خارجي؛ فيخصص عمومها، أو ينحي عن السياق بعض مدلولاتها.

وفي هذا الصدد أستأنس بفعل الإمام الطبري؛ حيث قال موجها معنى اسم الفرقان: "وأما تأويل اسمه الذي هو (فُرْقان)، فإن تفسيرَ أهل التفسير جاء في ذلك بألفاظ مختلفة، هي في المعاني مؤتلفة. فقيل: هو النَّجاة. وكان ابن عباس رضي الله تعالى عنهما يقول: (الفرقان): المخرَجُ. وقيل في قول الله عز وجل: ﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾ [سورة الأنفال:٤١]: يومٌ فَرَقَ الله تعالى فيه بين الحقّ والباطل. ثم عقب الإمام قائلا: وكل هذه التأويلات في معنى (الفرقان) – على اختلاف ألفاظها – متقاربات المعاني. ثم عَلل؛ فقال: وذلك أنّ مَنْ جُعِل له مخرجٌ من أمر كان فيه؛ فقد جُعل له ذلك المخرجُ منه نجاة. وكذلك إذا نُجِّي منه؛ فقد نُصِر على مَنْ بَغَاه فيه سُوءًا، وفُرِق بينه وبين باغيه السُّوءَ؛ فجميع ما روينا في معنى (الفرقان)، قولٌ صحيح المعاني؛ **لاتفاق معاني ألفاظهم في ذلك.** وأصل (الفُرْقان) عندنا: الفرقُ بين الشيئين، والفصل بينهما. وقد يكون ذلك بقضاءٍ، واستنقاذٍ، وإظهار حُجَّة، ونَصْرٍ،

==

الجذر اللغوي لها، أما القالب الذي وردت فيه، فله وظيفة أخرى تفهم في ضوء الدلالة الصرفية، وكذا النحوية، والصوتية.

وغير ذلك من المعاني المفرِّقة بين المحقّ والمبطِل. فقد تبين بذلك أنّ القرآن سُمّي (فرقانًا)؛ لفصله – بحججه، وأدلَّته، وحدود فرائضه، وسائر معاني حُكمه– بين المحق والمبطل. وفرقانُه بينهما: بنصره المحقّ، وتخذيله المبطل، حُكمًا وقضاءً " [1].

قلت: فتبين من صنيع الإمام: أنه قد فعل الدلالة اللغوية، ووظف الاستعمالات العربية، في فهم المفردة القرآنية، معللا فعله بكون تلك المعاني والدلالات متفقة فيما بينها، وأن تنوعها من باب التكامل والاتحاد، لا من باب التناقض والاختلاف، مبينا من وراء ذلك سعة المساحة التعبيرية للبنات النظم، ومدى تعاضدها، ووجه تكاملها فيما بينها، وإسهامها في إتمام المعنى، والكشف عن المراد.

وقد صرح الإمام الشعراوي– رحمه الله تعالى–، **بذلك قائلا:** " فلابد أولا أن ندرس اللفظ، واستعمالاته في اللغة؛ لأن القرآن جاء بلسان عربي مبين، فمن الجائز أن يوجد اللفظ في اللغة وله معانٍ متعددة " [2].

وفَعَّلَ هذا الضابط في فهم عناصر النظم؛ فعندما تعرض لقول الحق جل ثناؤه: ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَـٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَـٰلِفِينَ ﴾ [التوبة:٨٣]؛ **قال متسائلا:** " وما معنى خالفين؟ **ثم قال مجيبا:** المادة هي: (خاء)، و (لام)، و(فاء)، فيها: (خُلْف)، و(خلاف)، و(خُلُوف)، وغير ذلك. و(خالفين): إما أن يكونوا قد تخلفوا عن الخروج مع رسول الله ﷺ . وإما أن

---

[1] تفسير الطبري: ١ / ٩٨ وما بعدها بتصرف.

[2] تفسير الشعراوي: ٧ / ٤٠٧٧.

يكونوا خالفوا الرسول ﷺ ؛ بأنهم رفضوا الخروج. وإما أن يكونوا خلوفا. والخلوف: هو تغير الرائحة، وتغير الرائحة يدل على فساد الشيء؛ فكأنهم أصبحوا فاسدين. ومخالفين، تعني: فاسدين؛ لأنهم قد خالفوا أمر رسول الله ﷺ" (١).

وقال عند قوله عز شانه: ﴿ وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[البقرة: ١٣٥] **متسائلا، ومجيبا:** " ما معنى ﴿ حَنِيفًا ۖ ﴾؟ إن الاشتقاقات اللفظية لابد أن يكون لها علاقة بالمعنى اللغوي. **والحنف:** ميل في القدمين؛ أن تميل قدم إلى أخرى، هذا هو الحنف.. ونقول: إن الاعوجاج عن المعوج اعتدال. وقوله تعالى: ﴿ حَنِيفًا ۖ ﴾ تذكرنا بنعمة الله على الوجود كله؛ لأنه يصحح غفلة البشر عن منهج الله تعالى، ويأخذ الناس من الاعوجاج الموجود إلى الاعتدال " (٢).

وقال في موضع آخر: " ونحن نفهم أن كلمة ﴿ حَنِيفًا ۖ ﴾، تعني: الدين الصافي القادم من الله تعالى، والكلمة مأخوذة من المحسات، فالحنف هو ميل في الساقين من أسفل، أي: اعوجاج في الرجلين، ثم نقل الحنف إلى كل أمر غير مستوٍ. وهنا يتساءل الإنسان، هل كان إبراهيم عليه السلام في العوج أو في الاستقامة؟ وكيف يكون حنيفا، والحنف عوج؟ وهنا نقول: إن

---

(١) تفسير الشعراوي: ٩ / ٥٣٨٩ بتصرف. **هذا:** وقد تناولت تي المفردة بالشرح، والتحليل؛ فوظفت كل مدلولاتها، وفعلت كافة استعمالاتها، بما يكشف عن تمكنها في المقام، ويؤكد إعجازها البياني في النظم. ينظر: أسلوب الاحتباك في القرآن الكريم: صـ ٤٩٤ – ٥٠٥.

(٢) تفسير الشيخ الشعراوي: ١ / ٦٠٦ وما بعدها بتصرف.

إبراهيم عليه السلام كان على الاستقامة، ولكنه جاء على وثنية واعوجاج طاغ، فالعالم كان معوجا. وجاء إبراهيم عليه السلام؛ ليخرج عن هذا العوج، وما دام منحرفا عن العوج فهو مستقيم " [١].

ومن ثَمَّ قال ابن عاشور: " والحنيف: فعيل، بمعنى: فاعل، مشتق من: الحنف بالتحريك، وهو الميل في الرجل، والمراد: الميل في المذهب؛ فالذي به حنف يميل في مشيه عن الطريق المعتاد. وإنما كان هذا مدحا للملة؛ لأن الناس يوم ظهور ملة إبراهيم عليه السلام كانوا في ضلالة عمياء، فجاء دين إبراهيم عليه السلام مائلا عنهم؛ فلقب بالحنيف، ثم صار الحنيف لقب مدح بالغلبة " [٢].

فـ " الْحَنِيف: الْمَائِل إِلَى الدِّين المستقيم، تم يتسع في تفسيره؛ فيقال: الحنيف: الناسك، ويقال: هو المختون، ويقال: هو المستقيم الطريقة. ويقال: هو يتحنف، أي: يتحرى أقوم الطريق " [٣].

قلت: فتجلى من صنيع الإمامين: أن المعول عليه في دراسة المفردة، وفهم معناها: إنما هو الجذر اللغوي لها، كما تجلى مبدأ التوسع في المعنى؛ بتوظيف الدلالات اللغوية، وتفعيل الاستعمالات العربية، وتنزيلها على السياق، والإفادة منها في النظم، وبيان الأثر التفسيري الذي أثمرته، والتعدد الإيحائي الذي أكسبته، كما تلألأ ضرورة استحضار مبدأ الاشتقاق للمفردة،

---

(١) تفسير الشيخ الشعراوي: ٣ / ١٥٢٥ بتصرف يسير.

(٢) التحرير والتنوير: ١ / ٧٣٧ بتصرف.

(٣) مقاييس اللغة (ح ن ف): ٢ / ١١٠ وما بعدها بتصرف يسير.

وما التصقت به من معان محسوسة، وفهمها في ضوئه. وهذا ما عليه السادة المفسرون، وسيتضح في ثنايا البحث من خلال تناولهم للوصف (عربي).

خامسا: استحضار ضرورة مراعاة الأساليب العربية في فهم النظم القرآني؛ فمن البديهي أنه إذا كان لسان التنزيل عربيا؛ فلا مناص من ضرورة فهم القرآن في ضوء معطيات لغته، وأساليب لسانه، وقد تقرر قريبا: أن المفردة العربية لها من الخصائص والميزات ما يجعلها متمكنة في سبكها، مستجيبة لسياقها، متسقة لعناصر نظمها. هذا من حيث اللفظ. أما من حيث الأساليب العربية التي ينبغي أن يفهم القرآن في ضوئها؛ فسوف أقتصر على مثال يوضح الأمر، ويقربه.

فها هو الإمام الشعراوي يقرر: أنه لا سبيل لفهم القرآن بدون لغته، وأساليب لسانه؛ فيقول حاسما الخلاف في قضية أبوة آزر لإبراهيم عليه السلام: " إننا نأخذ اللغة، ونأخذ استعمالات القرآن في معنى الأبوة، والقرآن صريح في أن الأبوة كما تطلق على الوالد الحقيقي الذي ينحدر الولد من صلبه، تطلق كذلك على أخي الوالد أو عمه. **والدليل على ذلك:** أن القرآن الذي قال: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ ... ﴾ [الأنعام: ٧٤]، هو بعينه الذي قال: ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة:١٣٣]. فجاء سيدنا إسماعيل وسط هؤلاء الآباء، وهنا نفهم أن أبوة إسماعيل ليعقوب إنما هي أبوة عمومة، كأن القرآن نطق بأن العم يطلق عليه أب.. **وبعد ذلك نأتي لنقول:** هم حين يريدون الأب الحقيقي؛ يقولون له: أب، ولا يأتون باسمه الشخصي، بخلاف ما لو جاء

بتحديد الاسم العلم؛ ينصرف الذهن إلى العم. إذن فلو قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ﴾، ولم يحدد العلم؛ لقلنا: إن آزر هو والد إبراهيم عليه السلام، ولكن القرآن حدد الاسم، وقال: ﴿لِأَبِيهِ ءَازَرَ ﴾، أي: ميّز اسم الشخص؛ ليخرج الأب الحقيقي من كلمة أب، وبذلك تنتهي الخلافية في هذه المسألة " [1].

ومن ثَمَّ قال ابن عاشور: " إن مفسر القرآن لا يعد تفسيره لمعاني القرآن بالغا حد الكمال في غرضه؛ ما لم يكن مشتملا على بيان دقائق من وجوه البلاغة، في آيه المفسرة، بمقدار ما تسمو إليه الهمة من تطويل واختصار، فالمفسر بحاجة إلى بيان ما في آي القرآن من طرق الاستعمال العربي، وخصائص بلاغته، وما فاقت به آي القرآن في ذلك؛ لئلا يكون المفسر حين يعرض عن ذلك بمنزلة المترجم لا بمنزلة المفسر " [2].

قلت: فتأكد مما سبق: ضرورة الاعتماد على أساليب اللغة العربية المتعددة – كالإطناب الذي جاء في الآية بذكر العلم الشخصي– ، واستحضار بلاغتها، ومكانتها عند العرب– لا بد من ذلك في فهم معاني التنزيل، والوقوف على أنماط بيانه، وضروب إعجازه، **كما تقرر:** أن تلك الأساليب من ضمن منظومة الإعجاز البياني التي تبين سمو النظم القرآني، **وتبين:** أنه مَنْ أراد ولوج ساحة النظم المعجز؛ عليه أن يتسلح بأدوات فهمه، ويتذرع بآليات بلوغه، ودعائم ولوج ساحته، وإدراك إعجازه.

---

[1] تفسير الشيخ الشعراوي: ٦ / ٣٧٣٢ – ٣٧٣٤ بتصرف.

[2] التحرير والتنوير: ١ / ١٠٢ بتصرف يسير.

سادسا: الاعتماد في إثبات الإعجاز البياني للنظم القرآني، على بيان مدى الوحدة، والانسجام، والترابط، بين: عناصر النظم، وحيثيات اتساقها لمقتضى الحال. وهذا يستفاد من إقران الدلالات اللغوية لكل منها، واستحضار كافة الاستعمالات المنوطة بها، وإلقاء الضوء على إعجاز وظيفتها في النظم، ومدى استجابتها للسياق؛ ليتجلى بالغ التآلف، وبديع التناغم، وعجيب التتميم والتعاضد، وأكيد التوافق **بين** المدلولات على اختلاف حيثيات دلالتها، وتنوع استعمالاتها، وتشعب إيحاءاتها، وتعدد إشارتها، **وبين** نظمها، وسياق ورودها [1].

ومن ثَمَّتْ قال الإمام ابن عطية: " والصحيح: أن الإتيان بمثل القرآن، لم يكن قط في قدرة أحد من المخلوقين، ويظهر لك قصور البشر؛ في أن الفصيح منهم، يصنع خطبة، أو قصيدة، يستفرغ فيها جهده، ثم لا يزال ينقحها حولا كاملا، ثم تعطى لآخر نظيره؛ فيأخذها بقريحة؛ فيبدل فيها، وينقح، ثم لا تزال كذلك فيها مواضع للنظر والبدل. وكتاب الله تعالى، **لو نزعت منه لفظة، ثم أدير لسان العرب، في أن يوجد أحسن منها؛ لم يوجد.** ونحن يتبين لنا البراعة، في أكثره، ويخفى علينا وجهها في مواضع؛ لقصورنا عن مرتبة العرب يومئذ، في: سلامة الذوق، وجودة القريحة، وميز الكلام " [2].

---

(1) على نحو ما قد تم تحقيقه في بحث: المفردة القرآنية في نظم الجملة الحالية: صـ ١٢٤ وما بعدها.

(2) المحرر الوجيز: ١ / ٥٢ بتصرف يسير.

قلت: فقرر الإمام: إثبات العجز عن الإتيان بأقصر سورة من القرآن، **وبَيَّنَ** مدى التمكن في اللفظ، والإحكام في النسج، والبراعة في النظم، **وأعلن:** أنه حتى تدرك بلاغته، وتظهر براعته؛ لابد من: سلامة الذوق، وجودة القريحة، وميز الكلام.

مما يوحي: بأنه لا سبيل لفهمه، والوقوف على أسراره إلا من خلال مفتاحه، المتمثل في لغته، مما يشير إلى ضرورة تحليل مفرداته لغويا، واستحضار استعمالاتها عربيا، وفهم أساليبه بلاغيا؛ حتى يتم الكشف عن فصاحته، وإثبات بلاغته، ويتقرر: إعجاز بيانه، واستحالة معارضته.

ومن ثَمَّتْ قال الشيخ عبد الكريم الخطيب مقررا هذا المعنى: " إنه بهذا اللسان هو نعمة جليلة أنعم الله تعالى بها على العرب، الذين كان معهم وحدهم **مفاتح** الطريق إلى هذا النور... " [1].

قلت: فقرر الشيخ: أن النور – أي: القرآن – له مفتاح، يتأتى من خلاله فهمه، والوقوف على أسراره، والغوص في أعماقه، والاغتراف من خيره، والنيل من فيضه، وهذا المفتاح يتمثل في لغته التي بها نزل، ولا شك أن من مقتضيات ذاك: مراعاة حيثيات هذا اللسان المختلفة، والمتعددة، والتي تتصور في دلالة الكلمة، واستعمالاتها، وقالب صياغتها، وأسلوبها، مما هو متوفر عند العرب وحدهم، ومظهر من مظاهر إكرامهم.

---

[1] التفسير القرآني: ١٣ / ١٠٢.

سابعا: إبراز خصائص الكلمة القرآنية في نظمها، من كونها: صادقة، معبرة، موحية، مصورة، مجسدة [١]، قوية، مطنبة، متمكنة، ثرية المعاني، عميقة الدلالة، فضفاضة التعبير، معجزة الدلالة العلمية [٢] ....إلخ-

---

[١] ومن ثَمَّ قيل في سمات النظم القرآني: " إفادة التصوير: وذلك؛ أن الكلمة القرآنية، تقدم للقارئ صورة فنية، وتستقل برسم مشهد، أو نقل حركة، أو تشخيص فكرة، بل إنها تقدّم لنا ما يسميه العصريون (التجسيم)، تجسيم المعنويات المجردة، وإبرازها أجساما، أو محسوسات؛ لتزيد المعنى تمكنا من النفس، وتأثيرا فيها " . علوم القرآن الكريم: صـ ٢٦٥.

[٢] " فقد جاءت عبارات القرآن الكريم عن القضايا الكونية، بطريقة عجيبة، تجعلها مفهومة عند العربي القديم، والعامي، لكنها تفيض بمعان، يكشفها التأمل، تتناسب مع تقدم العلم، وظهور مزيد من الحقائق، التي كانت مجهولة، مما حفلت به دراسات إعجاز القرآن العلمي. **وللمفردة القرآنية دور كبير في هذا الباب العظيم**، يطول استقصاؤه جدا، فمن ذلك: قوله تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴾ [الحجر:٢٢]؛ فقوله سبحانه: ﴿لَوَٰقِحَ ﴾، فهمه المفسّر القديم: مجازا عن تلقيح الرياح الأزهار، أو جمع السّحب؛ اجتماع الذكر بالأنثى. لكنّ العلم الحديث قرر: أنّ السحاب يحمل شحنة كهربائية، **بعضه** سالب الشحنة، **وبعضه** موجب، وأن الرياح تلقح السحب السالبة بالموجبة؛ فينزل المطر. وهذا التفسير في غاية الدقة، وهو أليق بتناسب الجملة مع قوله سبحانه بعدها: ﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾، لا سيما مع هذا العطف بحرف (الفاء)، التي تفيد الترابط. وهكذا آيات القرآن المتعلقة بالكون، كلها شاهد على أنه تنزيل مَنْ يعلم السّرّ في السموات والأرض، تبارك وتعالى. وغير ذلك كثير من دور غريب القرآن، وكلماته، يزيد المتأملين فيه إيمانا، وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعا " . علوم القرآن الكريم: صـ ٢٦٥ وما بعدها بتصرف.

اعتمادا على ما تفيده من دلالات، وما توحي به من إيحاءات، وما تبتعثه من إشارات، لها وقعها في النظم، وأثرها التفسيري في السياق.

ثامنا: بيان تمكنها في النظم؛ من خلال دلالتها اللغوية، وكذا صيغتها الصرفية؛ إذ إن الدلالتين: اللغوية، والصرفية، متفقتان فيما بينهما، فتتلاقى كل منهما مع الأخرى؛ لتسهم في إتمام المعنى، وإكمال المراد.

وفي هذا الصدد قيل: " ولصيغة الكلمة الصرفية دورها الهام جدا في أسلوب القرآن الكريم، ينطوي على لون من قمة الإعجاز البياني، بل قد ينطوي على إعجاز علمي عظيم " [1].

ومثال ذلك قوله جل جلاله: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾ [البقرة:١٧].

فقد نفى الله تعالى عنهم الإبصار، معبرا عنه بالمضارع، والتقدير: غير مبصرين؛ وذلك؛ لما فيه من استحضار الصورة في الذهن، وارتسامها للأعين، وتجددها في الواقع.

ومن ثَمَّ قيل في الفرق بين فعلية الجملة، واسميتها: " وفعليتها؛ لإفادة التجدد. واسميتها؛ لإفادة الثبوت؛ فإن من شأن الفعلية: أن تدل على التجدد، ومن شأن الاسمية: أن تدل على الثبوت " [2].

---

[1] علوم القرآن الكريم: صـ ٢٢٩ بتصرف يسير.

[2] الإيضاح في علوم البلاغة: ٢ / ١٣٣ .

وقال الشيخ أبو زهرة: " ونفَى الله تعالى عنهم الإبصار بالفعل المضارع؛ لتجدد العمى عليهم، وعدم الإبصار؛ بتَكرار أفعالهم المظلمة الدائمة " [1].

تاسعا: تفعيل الدلالة النحوية أحيانا؛ تتميما للكلام، واستقصاء لصور الإعجاز البياني، المتمثل في بعض دلالات نظم القرآن.

وفي هذا الصدد قال الرافعي: " ولو تدبرتَ ألفاظ القرآن، في نظمها؛ لرأيت حركاتها: الصرفية، واللغوية، تجري في الوضع والتركيب، مجرى الحروف أنفسها، فيما هي له من أمر الفصاحة؛ فيهيئ بعضها لبعض، ويساند بعضا، ولن تجدها إلا مؤتلفةً مع أصوات الحروف، مُساوقةً لها في النظم الموسيقي؛ حتى إن الحركة ربما كانت ثقيلة في نفسها؛ لسبب من أسباب الثقل أيها كان؛ فلا تعذُب، ولا تُساغ، وربما كانت أوكس النصيبين، في حظ الكلام، من: الحرف، والحركة، فإذا هي استعملت في القرآن؛ رأيت لها شأنا عجيبا، ورأيت أصوات الأحرف، والحركات التي قبلها، قد امتهدت لها طريقا في اللسان، واكتنفتها بضروب من النغم الموسيقي، حتى إذا خرجت فيه؛ كانت أعذبَ شيء، وأرقه، وجاءت متمكنة في موضعها، وكانت لهذا الموضع أولى الحركات بالخفة، والروعة " [2].

وقال – أيضا – : " وما يشذ في القرآن الكريم حرف واحد عن قاعدة نظمه المعجز؛ حتى إنك لو تدبرت الآيات، التي لا تقرأ فيها إلا ما يسرده من الأسماء الجامدة، وهي بالطبع مظنة أن لا يكون فيها شيء من دلائل

---

[1] زهرة التفاسير: ١ / ١٤٤ .

[2] إعجاز القرآن والبلاغة النبوية: صـ ١٥٦.

الإعجاز؛ فإنك ترى إعجازها أبلغ ما يكون في نظمها، وجهات سردها، ومن تقديم اسم على غيره، أو تأخيره عنه؛ لنظم حروف، ومكانه من النطق في الجملة؛ أو لنكتة أخرى، من نكت المعاني التي وردت فيها الآية؛ بحيث يُوجِد شيئا فيما ليس فيه شيء... فالقرآن إنما أعجز في اللغة؛ بطريقة النظم، وهيئة الوضع ولن تستوي هذه الطريقة، إلا بكل ما فيه على جهته، ووضعه، فكل كلمة منه، ما دامت في موضعها؛ فهي من بعض إعجازه " [1].

وقيل: " لو تدبّرت ألفاظ القرآن في نظمها؛ رأيت حركاتها: الصرفية، واللغوية، تجري في: الوضع، والتركيب، على غاية التآلف الصوتي؛ فيهيّئ بعضها لبعض، ويساند بعضها بعضا، ولن تجدها؛ إلا مؤتلفة مع أصوات الحروف، مساوقة لها في النظم الموسيقى؛ فجاءت أعذب شيء، وكانت متمكّنة في موضعها غاية التمكن " [2].

ومثاله – أيضا – قوله عز شأنه: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾ [البقرة:١٧].

قلت: قد جاء الفعل مرفوعا بثبوت (النون)؛ لأنه من الأمثلة الخمسة، وقد تجرد من الناصب، والجازم، وهذه الصورة تسهم بدورها في بيان بلاغة الفاصلة، وتفصح عن بالغ تمكنها؛ لما في الصيغة الثبوتية الكاملة من ارتسام شكل الفعل، وحضوره كاملا، فإذا ما دخل عليه النفي؛ انتفى على سبيل الكمال، والكلية، وتسلط النفي على كل حروف الفعل، مسهما في نفي

---

[1] إعجاز القرآن والبلاغة النبوية: صـ ١٦١ وما بعدها بتصرف.

[2] علوم القرآن الكريم: صـ ٢٦٤ بتصرف.

كل أجزائه، وجميع عناصره، وأركانه؛ ومن ثَمَّ فكان هو الأكثر تناغما مع المقام، والأشد اتساقا لمقتضى الحال.

وهذا من جمال اللغة العربية، وإعجازها؛ فيأتي الفعل المضارع ثبوتيا، كاملا بعد النفي بـ (لا)؛ ليقع التناسب بين النفي، وما تسلط عليه؛ فكما أن (لا) تنفي عموم المبصرات؛ فقد جاء الفعل كاملا؛ لتتسلط عليه كاملا؛ فتنفيه على سبيل العموم، والكلية، فيبلغ التناسب بينهما مبلغه، ويتأكد جمال اللغة، وإعجازها على آكد وجه، وأبلغه!

قال أبو البقاء مؤكدا هذا المعنى: " و(لَا) كَمَا تفِيد عُمُوم النكرَة الَّتِي تدخل عَلَيْهَا، تفِيد – أَيْضا – عُمُوم الْفِعْل الَّذِي تدخل عَلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ مِنْهَا، أَو يشبهها، نَحْو: (لَا أكلت)؛ فتفيد نفي جَمِيع المأكولات الْمُمكن نَفْيه " [1].

ومن هِنَّا [2] وقع بالغ التناسب، وأكيد الاتساق بين معناها الاستعمالي،

---

[1] الكليات : صـ ٩٦٦ وما بعدها بتصرف.

[2] **قلت:** وهو اسم إشارة يشار به للمكان، **<u>قال ابن مالك ناظما:</u>** " (وبهنا أو ههنا أشر إلى...داني المكان وبه الكاف صلا. في البعد أو بثمّ فه أو هنّا...أو بهنالك انطقن أو هنّا) " . ألفية ابن مالك: صـ ١٥. **<u>وقال الأشموني شارحا:</u>** " (وَبِهُنَا): المجردة من (ها) التنبيه، (أَوْ هههُنَا): المسبوقة بها (أَشِرْ إِلَى دَانِي الْمَكَانِ)، أي: قريبه، (وَبِهِ الْكَافَ صِلاَ فِي الْبُعْدِ) نحو: هناك، وههناك، (أَوْ بِثَمَّ فُهْ)، أي: انطق في البعد بـ(ثَمَّ)، (أَوْ هَنَّا): بالفتح، والتشديد، (أَوْ بِهُنَالِكَ)، أي: بزيادة (اللام) مع (الكاف)، (انْطِقَنْ): على لغة الحجاز، كما تقول: (ذلك). ولا يجوز (ها هنالك)؛ كما لا يجوز (هذا لك) على اللغتين. (أَوْ هِنَّا): بالكسر، والتشديد. يقال: (هَنَّا، وهِنَّا، وَمِنْ هُنَّا). تروى الأولى: بالفتح، والثانية: بالكسر، والثالثة: بالضم، بتشديد (النون) في الثلاث، وكلها بمعنى، وهو: الإشارة إلى المكان، لكن الأوليان للبعيد، والأخيرة للقريب، وربما جاءت للزمان" . شرح الأشموني: ١٢٣/١ وما بعدها بتصرف.

وعملها النحوي، بما لا غاية وراءه!

ومن كمال الاتساق، والبلاغة، والمبالغة: أن حذف متعلق الفعل؛ ليفيد عموما، واتساعا؛ لتذهب فيه النفس كل مذهب، وليجد كل متوقعه، فلا يبقى متعلق في الذهن إلا أفاده الحذف، ولا تعدية إلا نطق بها؛ مما يبرز اتساق الأسلوب، وتناغم التركيب، وإبداع السبك، وإحكام النسج.

الخلاصة:

وبعد، فتلك بعض الضوابط التي تسير دراسة عناصر النظم في ضوئها، وتسترشد بومضاتها، وتستظل بظلالها. تُسْلَكُ في سبيل الوقوف **على: سر** تعين الكلمة القرآنية في نظمها، **ونكتة** إيثارها، **وحيثية** استحالة الاستغناء عنها، أو استبدالها بغيرها، سواء أكان ذلك خاضعا للدلالة اللغوية، أم الصرفية، أم النحوية.

الفصل الثاني

من أسرار الوصف بالعربية في النظم القرآني

وفيه سبعة مباحث.

المبحث الأول: اختيار العربية من مقتضيات حال التحدي، ومستدعيات ثبوت الإعجاز.

المبحث الثاني: الكشف عن مقومات اللغة الذاتية، وخصائص لسانها الأساسية.

المبحث الثالث: إيثار العربية لغة للتنزيل إقامةً للحجة، ودحضا للمعذرة.

المبحث الرابع: حصول الامتنان، ولفت النظر للاتباع.

المبحث الخامس: بيان وظيفة الأمة العربية، وإعلان مسئوليتها تجاه البشرية.

المبحث السادس: الترهيب من الإعراض عن التنزيل، والتفريط بواجب الدعوة إليه.

المبحث السابع: تقرير أن اللغة العربية هي مفتاح التعامل معه، وسبيل بيان إعجازه.

توطئة

اقتضت حكمة العليم الخبير أن تكون اللغة العربية هي لسان التنزيل، وسبيل فهمه، وطريق تحصيله، فاصطفاها الله جل جلاله؛ للقيام بمهام الوحي، وثبوت التحدي، وتحقيق الإعجاز؛ فكانت هي الجديرة بهاته المثابة، الخليقة بتا المنة، وذه الكرامة، كيف لا وقد توفر لها من الخصائص والميزات ما لم يتوفر لغيرها على اختلاف الألسنة، وتنوع طرق البيان؟! لا سيما وقد تقرر أن في اصطفائها تحقق الفوائد الجمة، والمصالح المتنوعة.

وقد اتضح ذلك لاسيما بعد الوقوف على حقيقة هذا الوصف (العربي) في ضوء لغته، واستعمالات لسانه، وبيان عمق دلالته، وتجذر معانيه، وبعد إشاراته، وسعة إيحاءاته، وكذا بيان ضوابط دراسة عناصر النظم، فتقرر: أنه **كلمة** وفي طياتها ما يكشف عن كنهها، ويعلن خصائصها ويشيد بمقوماتها، ويحمل في طياته مكنونات الامتنان بها، وبواعث الإذعان لما جاء بلسانها، مما يفصح بمطاويه عن أسرار اصطفائها.

وتتمة لذلك يجدر الوقوف على أسرار ورود هذا الوصف في النظم الكريم، والرجوع إلى ما قاله السادة المفسرون حوله، وبيان سره في السبك، وأثره التفسيري في السياق؛ كشفا عن بلاغة، وسمو النظم القرآني، وتقريرَ وجه إعجازه البياني.

هذا: وفي صنيعهم ما يؤكد ضرورة مراعاة ضوابط دراسة عناصر النظم السابق ذكرها، **والتي من بينها:** استحضار مفهوم الكلمة، ودلالتها في ضوء معطيات لغتها، واستعمالات لسانها، مع الإفادة الكاملة من ذلك؛ بتوظيف تلك الدلالات، ومراعاة هذه الاستعمالات... كما تقرر.

ومما ينبغي الإشارة إليه: أن السادة المفسرين قد وجهوا اهتمامهم؛ للبحث عن سبب إيثار العربية كلغة للتنزيل، فتناولوا ذاك الوصف (عربي) في سياقاته المتعددة، وأمعنوا النظر في أسراره، فراحوا يتلمسون سر التعبير به في النظم، وأسباب وروده في السبك، مبرزين حيثيات إيثار الوصف به، مطنبين في الكشف عن خصائصه، مسترسلين في الإشادة بمقوماته، مبرهنين من خلال ذلك على أسباب اصطفاء لغته؛ لتكون لسان التنزيل السماوي، وترجمان الوحي الإلهي.

وفيما يلي عرض لأبرز أقوال السادة المفسرين حول إيثار وصف العربية في النظم، وبيان سره، ونكتته في السياق. فعني العلماء بتوجيهه في ضوء أسباب اختيار العربية.

ويمكن إجمال أسباب إيثار وصف العربية، وأسرار التعبير به في المباحث التالية.

المبحث الأول

اختيار العربية من مقتضيات حال التحدي، ومستدعيات ثبوت الإعجاز

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ ... ﴾ [إبراهيم: ٤].

ومن هذا المنطلق كان اختيار اللغة العربية لسانا للتنزيل أمرا بديهيا، وتقرير حيثية هذا الأمر يكمن في أن العرب إنما برعوا في مجال الكلام؛ فكانوا أرباب الفصاحة، وأعمدة البلاغة، وكعوب البيان، ومن المعلوم: أن المعجزة إنما تكون من جنس ما برع فيه القوم، فمتى تحدوا بمجاراتها، والإتيان بمثلها، وعجزوا عن ذلك؛ قامت الحجة، وثبت الإعجاز؛ ومن ثَمَّ فقد اقتضى الحال اختيارها؛ لتكون لغة التنزيل، ولسان الوحي.

قال الإمام الشافعي معللا حيثية نزوله عليهم: " القرآن نزل بلسان العرب دون غيره؛ لأنه لا يعلم مِن إيضاح جُمَل عِلْم الكتاب أحد، جهِل سَعَة لسان العرب، وكثرةَ وجوهه، وجِماعَ معانيه، وتفرقَها. ومَنْ علِمه؛ انتفَتْ عنه الشُّبَه التي دخلَتْ على مَنْ جهِل لسانَها " [١].

وقال – أيضا – : " فإنما خاطب الله تعالى بكتابه العربَ بلسانها، على ما تَعْرِف مِن معانيها، وكان مما تعرف من معانيها: اتساعُ لسانها " [٢].

---

[١] الرسالة، للشافعي: صـ ٤٧.

[٢] الرسالة، للشافعي: صـ ٥٠ بتصرف يسير.

وقال الباقلاني: " والعربية أشدها تمكنا، وأشرفها تصرفا، وأعدلها، ولذلك؛ جعلت حلية لنظم القرآن، **وعلق بها الإعجاز، وصارت دلالة في النبوة** " (١).

قلت: وإنما تتمثل مقتضيات التحدي في نسبتهم إلى العربية أولا، ومجيء الوحي بلسانهم، ونسبته إليهم ثانيا؛ مما يثبت تفوقهم فيه، وتمكنهم من فهمه، لاسيما أن اللغة عندهم كان لها من نفوسهم الحظ الأوفر، ومن حياتهم النصيب الأعظم.

ومن ثَمَّ قال الخازن مقدرا: "﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ [فصلت: ٣]، أي: باللسان العربي " (٢).

وقال الإمام الأوسي: " ومعنى كونه عَرَبِيًّا: أنه منسوب الى العرب؛ باعتبار أنه نزل بلغتهم، وهي لغة قديمة " (٣).

وقال الإمام ابن عاشور: " چبحچ [الشورى: ٧]: نسبة إلى العربية، أي: لغة العرب؛ لأن كونه چبجچ يدل على أنه كلام، فوصفه بكونه چبحچ يفيد: أنه كلام عربي " (٤).

وقال الشيخ الشعراوي معللا عربية الوحي: " قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا... ﴾ [طه: ١١٣]؛ لأنه ﷺ هو المباشر لهذه الأمة العربية، التي

---

(١) إعجاز القرآن، للباقلاني: صـ ١١٨.

(٢) تفسير الخازن: ٤ / ٨٢ بتصرف يسير.

(٣) تفسير الألوسي: ٦ / ٣٦٤.

(٤) التحرير والتنوير: ٢٥ / ٣٥ وما بعدها بتصرف يسير.

ستستقبل أول دعوة له؛ فلا بد أن تأتي المعجزة بلسانها؛ إذن طبيعي أن يأتي القرآن عربيا؛ لأنه نزل على رسول عربي، وفي أمة عربية، والحق سبحانه يقول: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ ... ﴾ [إبراهيم: ٤] " [١]. " وكان لابد من وجود معجزة تدل على صدق بلاغه عن الله تعالى، **وأن تكون مِمَّا نبغ فيه العرب؛ لأن المعجزة مشروطة بالتحدي، ولا يمكن أن يتحداهم في أمر لا ريادة لهم فيه..** وكان العرب أهل بيان، وأدب، ونبوغ في الفصاحة والشعر، **وكانوا يجتمعون في الأسواق، وتتفاخر كل قبيلة بشعرائها وخطبائها المُفوَّهين، وكانت المباريات الأدائية تُقَام**، وكانت التحديات تجرى في هذا المجال، ويُنصَب لها الحكام، أي: أن الدُّرْبَة على اللغة كانت صناعة متواترة، ومتواردة، محكوم عليها من الناس في الأسواق، **فهم أمة بيان، وبلاغة، وفصاحة.** لذلك؛ شاء الحق سبحانه أن يكون القرآن معجزة من جنس ما نبغ فيه العرب، وهم أول قوم نزل فيهم القرآن " [٢].

وقال ابن عاشور كاشفا سر الوصف: " ﴿ كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴾ [فصلت: ٣] فهذا تحد لهم، ووصف للقرآن **بصفة الإعجاز** " [٣].

وفي هذا الشأن قال الشيخ عبد الكريم الخطيب: " ﴿ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾ [الزخرف: ٣]: ومن بيان القرآن، الذي يكشف عن الحكمة المشتمل عليها: أنه جاء إلى مَنْ يخاطبهم باللسان الذي

---

[١] تفسير الشعراوي: ١٥ / ٩٤٠١ وما بعدها بتصرف.

[٢] تفسير الشعراوي: ١١ / ٦٨٢٣ – ٦٨٢٥ بتصرف.

[٣] التحرير والتنوير: ٢٤ / ٣١٢ بتصرف.

يحسنون التفاهم به، وهو اللسان العربي. ولو جاءهم بغير هذا اللسان؛ لما عقلوا منه شيئا، ولما انتفعوا به، ولأفلت من أيديهم كل ما اشتمل عليه من حكمة. وإنه ليس بالحكيم مَنْ يخاطب الناس بالأسلوب الذي لا يفهمونه، وباللغة التي لا يحسنون الفهم عنها؛ إنه حينئذ لا يجد أذنا تصغى إليه، ولا قلبا ينفتح له، ولا عقلا يتجاوب معه؛ إذ يحدثهم بأصوات لا مفهوم لها عندهم. ولهذا؛ **فقد كان من مقتضيات البلاغة، ومن بلاغة البليغ: مراعاة مقتضى الحال**، فلكل مقام مقال- كما يقولون-[1]، فلا يخاطب الجاهل خطاب العالم، ولا العالم خطاب الجاهل، ولا البدوي بمفاهيم الحضري، ولا

---

(1) **قلت:** هذه الكلمة وردت كثيرا، وأول مَنْ قالها: طرفة بن العبد. وفي هذا الصدد قال المفضل بن سلمة: "قولهم: (لكل مقام مقال)، أول مَنْ قال ذلك: طرفة بن العبد في شعر يعتذر فيه إلى عمرو بن هند: (تصدَّق عليَّ هداكَ المليكُ ... فإنّ لكلِّ مقامٍ مقالا) " . الفاخر، للمفضل: صـ ٣١٤. **وقد وردت مع زيادة؛ فقيل:** " لكل مقامٍ مقالٌ؛ ولكل موضعٍ مجالٌ". كليلة ودمنة، لابن المقفع: صـ ١٦١. **وعند الجاحظ:** " لكل مقام مقال، ولكل صناعة شكل " . الحيوان: ١٧٤/٣. والرسائل الأدبية: صـ ٢٢. **وأورد ابن عبد ربه:** " لكل مقام مقال؛ ولكل كلام جواب؛ ورب إشارة أبلغ من لفظ ". العقد الفريد: ١٢٥/٢. **وعند أبي حيان التوحيدي:** " قيل: لكل مقام مقال، ولكل فعل أوان " . الصداقة والصديق: صـ ٢٤٧. **وقال أبو منصور الثعالبي:** " اخْتِصَاص كل مَكَان وَوقت وَحَال بِمَا يَلِيق بِهِ من الْكَلَام: **الْعَرَب:** لكل مقَام مقَال. **الْخَاصَّة:** خير الْكَلَام مَا وَافق الْحَال. **الْعَامَّة:** خير الْغناء مَا شاكل الزَّمَان. **وَفِي الْقُرْآن:** ﴿لِّكُلِّ نَبَإٖ مُّسْتَقَرّٞ﴾ [الْأَنْعَام: ٦٧] ". خاص الخاص: صـ ٣٢. **وجاءت:** " لكل مَقَامٍ مَقَال، ولكل دهرٍ رجالٌ " . مجمع الأمثال، لأبي الفضل النيسابوري: ٢ / ٢٠٢.

الحضري بمفاهيم البدوي. وإلا فقدت اللغة قيمتها، وضاعت معالمها، وأصبحت أشبه بالنقد الزائف، الذي ينكره الناس، ولا يتعاملون به " [1].

قلت: فدلت تلك النصوص على أن إيثار اللغة العربية، واصطفاءها؛ لتكون لغة التنزيل، إنما هو من مقتضيات الحال، ومستدعيات المقام، وبلوغ المرام.

وهذا بعينه ما فهم في ضوء الدلالة اللغوية لمادة (ع ر ب)، لاسيما في ظلال **مدلولات:** العرب العاربة: الصريح منهم، وفصاحة القول، واللسان، **ومدلول:** خلوص العربية، والتحبب إلى النفس، والميل إليها؛ مما يفيد معنى حب اللغة عندهم، ووقعها لديها، **ومدلول:** صاحب الفرس العربي، والنسبة إلى النبي العربي ﷺ .

---

[1] التفسير القرآني: ٦ / ١٢٣١.

المبحث الثاني

الكشف عن مقومات اللغة الذاتية، وخصائص لسانها الأساسية

وإذا كان اختيار اللغة من لوازم التحدي، ومقتضيات الإعجاز، فقد توفر لها من الخصائص، وتأكد لها من الميزات، ما لم يتحقق لغيرها على اختلاف الألسنة، وتنوع اللغات، وقد تبين من حقيقة مادة (ع ر ب) أنها تحمل في طياتها من المعان، والدلالات ما يكشف عن كنهها، ويفصح عن خصائصها، ويشيد بمقوماتها، ويعلن سمو أدائها... إلخ.

وفي ضوء تلك المعطيات جاء صنيع السادة المفسرين؛ فقد تناولوا الوصف (عربي) في النظم، وذهبوا يتلمسون دلالته في السياق، معربين من خلاله عن خصائص اللغة، مطنبين في بيان مقوماتها الذاتية، وخصائصها الأساسية.

قال الإمام الرازي مقررا مقومات اللسان العربي: " وكونه قرآنا عربيا مفصلا، يدل على أنه في **غاية الكشف والبيان**؛ مما يؤكد الرغبة في فهم القرآن، وفي شدة الميل إلى الإحاطة به " [١]. **وقال منوها به:** " إنما وصف الله تعالى القرآن بكونه عربيا في معرض المدح والتعظيم، وهذا المطلوب لا يتم إلا إذا ثبت أن لغة العرب أفضل اللغات " [٢].

قلت: فتجلى عند الإمام مدلولات: البيان، الكشف، الإفصاح، التحبب، والميل إليه، طيب النفس، والقدرة على الإحاطة به.

---

[١] تفسير الرازي: ٢٧ / ٥٤٠ بتصرف.

[٢] تفسير الرازي: ٢٧ / ٥٣٩ وما بعدها بتصرف.

وقال الإمام البقاعي مشيدا بخصائص اللسان العربي: " وهو مع جمع اللفظ، وضبطه، وحفظه، وربطه؛ منشور اللواء، منتشر المعاني لا إلى حد، ولا نهاية وعد، بل كلما دقق النظر؛ جَلَّ المفهوم، ولذلك؛ قال تعالى: ﴿عَرَبِيًّا﴾[فصلت: ٣]؛ **لأن لسان العرب أوسع الألسن ساحة، وأعمقها عمقا، وأغمرها باحة، وأرفعها بناء، وأفصحها لفظا، وأبينها معنى، وأجلها في النفوس وقعا"!** [١]. **ومن ثَمَّ** " قال الحرالي: وهو عربي؛ لبيانه عم كل شيء " [٢].

قلت: فكشف الإمام عن ما تمتاز به طبيعة اللغة العربية، من: السعة التعبيرية، والعمق الدلالي، وتحقق رفعة البناء، وفصاحة اللفظ، وجلاء المعاني، ووقعها الجليل على النفوس.

وقال النخجواني [٣] **مشيدا باللغة العربية:** " ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ [طه: ١١٣]، أي: كلاما عربي الأسلوب، والنظم " [٤]. " ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ [الزمر:

---

[١] نظم الدرر: ١٧ / ١٣٦.

[٢] نظم الدرر: ١٧ / ١٣٦ بتصرف.

[٣] **هو:** " نعمة الله بن محمود النخجواني، ويعرف بالشيخ علوان : متصوف، من أهل (آقشهر)، بولاية (قرمان)، نسبته إلى (نخجوان)، من بلاد القفقاس، رحل إلى (الأناضول)، واشتهر وتوفي بـ(آقشهر). له (الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية)، مجلدان في التفسير، على لسان القوم، قيل عنه: كتبه بلا مراجعة للتفاسير، وأدرج فيه من الحقائق والدقائق، ما يعجز عن إدراكه كثير من الناس، مع الفصاحة في عبارته، و (هداية الإخوان) في التصوف، (توفى:٩٢٠هـ) " . الأعلام للزركلي: ٨ / ٣٩ بتصرف يسير .

[٤] الفواتح الإلهية: ١ / ٥٢٢.

٢٨]: **أوضح بيانا، وأعظم شأنا، وأجل تبيانا، وبرهانا** " [١]. **وقال:** " ﴿عَرَبِيًّا﴾: [فصلت: ٣]: نظما وأسلوبا؛ إذ لا لغة أحسن منه وأشمل، وأفضل وأكمل " [٢].

وقال شارحا لخصائصه: " بديعا: نظما وأسلوبا، معنى، ودلالة، حاويا لأنواع المعارف، والحقائق الإلهية، محتويا على دقائق طريق التوحيد والعرفان، ما هو من جنس كلام البشر، بل هو خارج عن مداركهم مطلقا، متعال عن مشاعرهم وعقولهم " [٣].

ومن ثَمَّ قيل: " يرجع الإعجاز إلى دقة نظمه، وجلال أسلوبه، وكمال بنيانه، ودقة إحكامه، وتمام إتقانه " [٤].

قلت: تمهد مما سبق: أن الإمام جعل حيثيات وصف كلامه تعالى بالعربي تتجلى في كون مبناه: الحق، ومعتمده: الصدق، وأنه قائم على الحقائق، مُشَيَّد على: المعارف، ووضوح البيان، وعظم الشأن، وجلالة التبيان، وجلاء البرهان.

وتقرر: خصائص اللغة، من: حسنها، وشمولها، وفضلها، وكمالها.

كما أعلن هذا الوصف: بالغ الإبداع في النظم، والأسلوب، وسطوع المعنى، والدلالة.

---

[١] الفواتح الإلهية: ٢ / ٢٤٦.

[٢] الفواتح الإلهية: ٢ / ٢٧٢.

[٣] الفواتح الإلهية: ٢ / ٤٥٠.

[٤] التصوير القرآني للقيم الخلقية، لعلي صبح: صـ ٢٧.

وأفصح عن انطوائه على أنواع المعارف، والحقائق، ودقائقها؛ مما يجعله خارجا عن جنس كلام البشر.

ومن ثَمَّ قال العلامة أبو السعود: " ولقد فخَّم شأَنه الجليلَ؛ بما جَمع فيه من وصفِ القرآنيةِ المنبئةِ عن كونِه **بديعا في بابِهِ، ممتازا عن غيرِهِ بالنظمِ المعجزِ**؛ كما يُعربُ عنه قولُه تعَالَىٰ: ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الزمر: ٢٨] " [١].

وقال الإمام ابن عاشور مصرحا بمقومات اللغة: " و: ﴿عَرَبِيًّا﴾ [طه: ١١٣] صفة ﴿ قُرْءَانًا ﴾، وهذا وصف يفيد المدح؛ **لأن اللغة العربية أبلغ اللغات، وأحسنها فصاحة وانسجاما** " [٢]. **وقال عند قوله جل جلاله:** ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الزمر:٢٨]: "والمقصود من هذه الحال: الثناء على القرآن؛ **من حيث إنه كلام باستقامة ألفاظه؛ لأن اللغة العربية أفصح لغات البشر** " [٣].

وقال في موضع آخر: " والمقصود بوصف الكتاب بأنه عربي: التنويه بالقرآن، ومدحه؛ **بأنه منسوج على منوال أفصح لغة** " [٤].

وقال مشيدا بخصائص اللغة عند قوله سبحانه: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [فصلت: ٣]: " ومن كمال تفصيله: أنه كان **بلغة**

---

(١) تفسير أبي السعود: ٦ / ٢٧١.

(٢) التحرير والتنوير: ١٦ / ٣١٤ بتصرف يسير.

(٣) التحرير والتنوير: ٢٣ / ٣٩٨.

(٤) التحرير والتنوير: ٢٥ / ١٦١ بتصرف.

كثيرة المعاني، واسعة الأفنان، فصيحة الألفاظ؛ فكانت سالمة من التباس الدلالة، وانغلاق الألفاظ، مع وفرة المعاني غير المتنافية، في قلة التراكيب، فكان وصفه بأنه عربي من مكملات الإخبار عنه بالتفصيل. وقد تكرر التنويه بالقرآن من هذه الجهة كقوله:﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء:١٩٥]"[١].

وقال مصرحا بفضلها: " اختار الله سبحانه له **أفضل اللغات،** واختار إنزاله على أفضل البشر ﷺ " [٢]. **وقال معللا حيثيات اصطفائها:** " إن الله سبحانه وتعالى بباهر حكمته، جعل هذا الكتاب قرآنا بلغة العرب؛ **لأنها أشرف اللغات، وأوسعها دلالة على عديد المعاني، وأنزله بين أهل تلك اللغة؛ لأنهم أفهم لدقائقها،** ولذلك؛ اصطفى رسوله ﷺ من أهل تلك اللغة؛ لتتظاهر وسائل الدلالة، والفهم؛ فيكونوا المبلغين مراد الله تعالى إلى الأمم. وإذا كان هذا القرآن بهاته المثابة؛ فلا يأبى من قبوله إلا قوم مسرفون في الباطل، بُعَدَاء عن الإنصاف، والرشد " [٣]. **وقد أشار إلى خصائص ذلك الوصف؛ فقال:** " قوله تَعَالَىٰ:﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [الدُّخان: ٥٨].. وهذا اليسر يحصل مِنْ جَانِبِ الْأَلْفَاظِ، وَجَانِبِ الْمَعَانِي، فَأَمَّا مِنْ جَانب الْأَلْفَاظ: فلكونِهَا فِي أَعْلَى دَرَجَاتِ فَصَاحَةِ الْكَلِمَاتِ، وَفَصَاحَةِ التَّرَاكِيبِ؛ بِحَيْثُ يَخِفُّ حِفْظُهَا عَلَى الْأَلْسِنَةِ. وَأَمَّا مِنْ جَانِبِ الْمَعَانِي: فَبِوُضُوحِ انْتِزَاعِهَا مِنَ التَّرَاكِيبِ، وَوَفْرَةِ مَا تَحْتَوِي عَلَيْهِ التَّرَاكِيبُ مِنْهَا، مِنْ: مَغَازِي الْغَرَضِ الْمَسُوقَةِ هِيَ لَهُ، وَبِتَوَلُّدِ مَعَانٍ مِنْ مَعَانٍ أُخَرَ؛ كُلَّمَا كَرَّرَ

---

[١] التحرير والتنوير: ٢٤ / ٢٣١.

[٢] التحرير والتنوير: ٢٥ / ٣٥ وما بعدها بتصرف.

[٣] التحرير والتنوير: ٢٥ / ١٦١ بتصرف.

الْمُتَدَبِّرُ تَدَبُّرَهُ فِي فَهْمِهَا. وَوَسَائِلُ ذَلِكَ لَا يُحِيطُ بِهَا الْوَصْفُ... **وَيَتَأَتَّى ذَلِكَ بِتَأْلِيفِ نَظْمِ الْقُرْآنَ بِلُغَةٍ هِيَ أَفْصَحُ لُغَاتِ الْبَشَرِ، وَأَسْمَحُ: أَلْفَاظًا، وَتَرَاكِيبَ بِوَفْرَةِ الْمَعَانِي، وَبِكَوْنِ تَرَاكِيبِهِ أَقْصَى مَا تَسْمَحُ بِهِ تِلْكَ اللُّغَةُ؛ فَهُوَ خِيَارٌ مِنْ خِيَارٍ مِنْ خِيَارٍ.** قَالَ تَعَالَى: ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشُّعَرَاء: ١٩٥]. ثمَّ يكون المتلقين لَهُ أُمَّةً هِيَ أَذْكَى الْأُمَمِ عُقُولًا، وَأَسْرَعُهَا أَفْهَامًا، وَأَشَدُّهَا وَعْيًا لِمَا تَسْمَعُهُ، وَأَطْوَلُهَا تَذَكُّرًا لَهُ دُونَ نِسْيَانٍ " [1].

مما يؤكد التنويه بلسان العربية؛ لما اكتنفه من خصائص، وكذا التنويه بأهلها؛ لما تحقق لهم من السمات، والفضائل.

وقال معربا عن خصائص النظم القرآني: " إن نظم القرآن مبني على وفرة الإفادة، وتعدد الدلالة، فجُمَلُ القرآن **لها** دلالتها الوضعية التركيبية التي يشاركها فيها الكلام العربي كله، **ولها** دلالتها البلاغية التي يشاركها في مجملها كلام البلغاء، ولا يصل شيء من كلامهم إلى مبلغ بلاغتها، **ولها** دلالتها المطوية، وهي دلالة ما يذكر على ما يقدر؛ اعتمادا على القرينة، وهذه الدلالة قليلة في كلام البلغاء، وكثرت في القرآن، مثل: تقدير القول، وتقدير الموصوف، وتقدير الصفة، **ولها** دلالة مواقع جمله بحسب ما قبلها وما بعدها، ككون الجملة في موقع العلة لكلام قبلها، أو في موقع الاستدراك، أو في موقع جواب سؤال، أو في موقع تعريض أو نحوه. **وهذه الدلالة** لا تتأتى في كلام العرب؛ لقصر أغراضه في قصائدهم وخطبهم، بخلاف

---

[1] التحرير والتنوير: ٢٧ / ١٨٨ وما بعدها بتصرف.

القرآن، فإنه لما كان من قبيل التذكير والتلاوة؛ سمحت أغراضه بالإطالة، وبتلك الإطالة تأتى تعدد مواقع الجمل والأغراض " [١].

ثم قال: " ومرجع هذا الصنف من الإعجاز إلى ما يسمى في عرف علماء البلاغة، بالنكت البلاغية فإن بلغاءهم كان تنافسهم في وفرة إيداع الكلام من هذه النكت، وبذلك تفاضل بلغاؤهم، فلما سمعوا القرآن انثالت على كل من سمعه من بلغائهم من النكت التي تفطن لها ما لم يجد من قدرته قبلا بمثله،... وهذه الناحية من هذه الجهة من الإعجاز، هي أقوى نواحي إعجاز القرآن، وهي التي يتحقق بها إعجاز أقصر سورة منه. وفي هذه الجهة ناحية أخرى، وهي ناحية فصاحة اللفظ، وانسجام النظم، وذلك بسلامة الكلام في أجزائه ومجموعه...، ولغة العرب لغة فصيحة، وأهلها مشهورون بفصاحة الألسن " [٢].

ومن ثَمَّ قال الإمام الرازي: " إن المحاسن اللفظية غير مهجورة في الكلام الحكمي، والكلام له جسم، وهو اللفظ، وله روح، وهو المعنى، وكما أن الإنسان الذي نور روحه بالمعرفة ينبغي أن ينور جسمه الظاهر بالنظافة، كذلك الكلام، ورب كلمة حكمية لا تؤثر في النفوس؛ لركاكة [٣]

---

[١] التحرير والتنوير: ١ / ١١٠ بتصرف يسير.

[٢] التحرير والتنوير: ١ / ١١١ وما بعدها بتصرف.

[٣] قال ابن فارس: " (رَكَّ): (الرَّاءُ)، وَ(الْكَافُ): أَصْلَانِ: أَحَدُهُمَا – وَهُوَ مُعْظَمُ الْبَابِ – : رِقَّةُ الشَّيْءِ، وَضَعْفُهُ، وَالثَّانِي: تَرَاكُمُ بَعْضِ الشَّيْءِ عَلَى بَعْضٍ. فَالْأَوَّلُ: الرِّكُّ، وَهُوَ الْمَطَرُ الضَّعِيفُ... وتقول العرب: اقْطَعْهُ مِنْ حَيْثُ رَكَّ، أَي: مِنْ حَيْثُ ضَعُفَ، وَالرَّكِيكُ: الضَّعِيفُ الرَّأْيِ. وَالْأَصْلُ الثَّانِي: قَوْلُهُمْ: رَكَّ الشَّيْءَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ؛ إِذَا طَرَحَهُ، يَرُكُّهُ رَكًّا " . مقاييس اللغة (ر ك): ٢ / ٣٧٧ وما بعدها بتصرف.

لفظها " [1].

قلت: فتأكد مما سبق: باهر مقومات اللغة الذاتية، وتقرر: عجيب خصائص لسانها الأساسية، من كونها أبلغ اللغات، وأشرفها، وأوسعها دلالة على عديد المعاني، وأحسنها فصاحة وانسجاما، وأنها في غاية الكشف والبيان، كثيرة المعاني، واسعة الأفنان، فصيحة الألفاظ، سالمة من التباس الدلالة، عارية عن الغموض، نافرة من كل العيوب.

وتقرر: أن لفظها: أفصح الألفاظ، وأثراها، وأبينها معنى، وأجلها في النفوس وقعا. **وأن نظمها:** أوضح بيانا، وأعظم شأنا، وأجل تبيانا، وأجلى برهانا. **وأن لسانها:** أوسع الألسن ساحة، ثابت له العمق الدلالي، والثراء الإيحائي، والبعد الإشاري... وغير ذلك؛ مما **يشيد** بمكانتها، **وينوه** بفضلها، **ويجلي** أسباب تفوقها، وأسرار تحقق صدارتها، **ويبرهن** سموها، **ويعرب** عن أسباب اصطفائها.

---

[1] تفسير الرازي: ٢٨ / ١٧٠ بتصرف.

المبحث الثالث

إيثار العربية لغة للتنزيل إقامةً للحجة، ودحضا للمعذرة

كان من بليغ حكمة الملك العلام، وتمام رحمته، وكمال علمه، وبديع إرادته: أنه عز وجل لم يترك لأحد من الخلق من شبهة، ولا ثغرة للطعن في القرآن، الأمر الذي اقتضى إيثار اللغة العربية لغة للتنزيل؛ إقامةً للحجة، ودحضا للأعذار بما لا غاية وراءه! كما تقرر في ضوء توظيف الدلالة اللغوية لذلك الوصف.

وقد قرر الإمام الباقلاني حيثية هذا الوجه، مشيرا إلى أنه إذا ما تمت الموازنة بين كلام العرب المتسمين بالفصاحة، المتسلحين بالبلاغة، وبين كلامه تعالى؛ لعلم أن نظم القرآن يخالف نظمهم، ولتبين ما به التفاوت بينه، وبين كلامهم.

فقال: " إنه نسخ جملا من كلام الصدر الأول ومحاوراتهم وخطبهم؛ ليتأملها بسكون طائر، وخفض جناح، وتفريغ لب، وجمع عقل؛ حتى **يقع** له الفصل بين كلام الآدميين، وبين كلام رب العالمين، **ويعلم** أن نظم القرآن يخالف نظمهم، ويتبين الحد الذى يتفاوت بين كلام البليغين، والخطيبين، والشاعرين، وبين نظم القرآن جملة. ثم عقد بابا جليل الشأن، عظيم الخطر؛ لبيان أن نظم القرآن يزيد في فصاحته على كل نظم " [1].

ومن ثَمَّ فقد نطق القرآن بحيثيات كونه عربيا؛ مما يقيم الحجة عليهم، ويقطع أعذارهم؛ فجاء التعليل مرة بحصول التعقل، وثانية بتحقق التقوى،

---

[1] إعجاز القرآن، للباقلاني: صـ ٧٨ بتصرف.

وثالثة بحصول الذكرى، وأخرى بتمكن الإنذار، مؤكدا أنهم أهل العلم به، وسبيل الوقوف عليه، لا تخفى عليهم دلالته، ولا يغيب عن مداركهم بليغ بيانه، وحد إعجازه!

أما حيثية التعقل: فقال جل ذكره: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف:٢].

قال الإمام القرطبي: " ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف: ٢]، أَيْ: يَقْرَأُ بِلُغَتِكُمْ يَا مَعْشَرَ الْعَرَبِ. أَعْرَبَ: بَيَّنَ، وَمِنْهُ: الثَّيِّبُ تُعْرِبُ عَنْ نَفْسِهَا. ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾، أَيْ: لِكَيْ تَعْلَمُوا مَعَانِيَهُ، وَتَفْهَمُوا مَا فِيهِ " [(١)].

وقال في موضع آخر: " ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الزخرف: ٣]، أَيْ: تَفْهَمُونَ أَحْكَامَهُ، وَمَعَانِيهِ " [(٢)].

وقال العلامة أبو السعود مقدرا: " أي: أنزلناه حالَ كونِه مقروءا بلغتكم؛ لكي تفهموا معانيَه طرا، وتحيطُوا بما فيهِ من البدائع خُبْرا، وتطّلعوا على أنه خارجٌ عن طوْق البشر، منزَّلٌ من عند خلاّق القُوى والقدر " [(٣)].

---

(١) تفسير القرطبي: ٩ / ١١٩.

(٢) تفسير القرطبي: ١٦ / ٦١ بتصرف يسير.

(٣) تفسير أبي السعود: ٤ / ٢٥٠.

وقال جل شأنه: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الزخرف:٣].

قال الإمام الماتريدي مقدرا، ومعللا: " أي: نظمناه بالعربية؛ لتعقلوا"(١). **وقال الإمام البغوي:** " أي: أنزلناه بلغتكم؛ لكي تعلموا معانيه، وتفهموا ما فيه " (٢). **وتبعه ابن عطية** (٣).

وقال الإمام البيضاوي: " ولعل إقسام الله تعالى بالأشياء استشهاد بما فيها من الدلالة على المقسم عليه، وبالقرآن من حيث إنه معجز، مبين لطرق الهدى، وما يحتاج إليه في الديانة، أو بين للعرب ما يدل على أنه تعالى صيره كذلك؛ ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾: لكي تفهموا معانيه " (٤).

وقال الإمام القونوي معلقا: " بل جعله عربيا؛ ردا عليهم في قولهم: إنه مفترى، وبهذا يندفع الإشكال بأن جعله عربيا أمر بديهي؛ فلا يظن الفائدة في إخباره " (٥).

وقال العلامة أبو السعود مبينا وجه النظم، ومقدرا: " جوابٌ للقسمِ لكنْ لا على أنَّ مرجعَ التأكيدِ جعلُه كذلكَ، بلْ ما هُو غايتُه التي يُعربُ عنها قولُه تعالى: ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾؛ فإنَّها المحتاجةُ إلى التحقيقِ والتأكيدِ؛ لكونِها منبئةً عن الاعتناءِ بأمرِهم، وإتمام النعمةِ عليهم، **وإزاحة أعذارِهم** أي: جعلنا

---

(١) تفسير الماتريدي: ٩ / ١٤٥ بتصرف.

(٢) تفسير البغوي: ٢ / ٤٧٣.

(٣) ينظر المحرر الوجيز: ٣ / ٢١٨.

(٤) تفسير البيضاوي: ٥ / ٨٦.

(٥) حاشية القونوي: ١٧ / ٢٧٦.

ذلك الكتاب قُرآنا عربيا؛ لكي تفهمُوه، وتحيطُوا بما فيهِ من النظمِ الرائقِ، والمعنى الفائق، وتقفوا على ما يتضمنه من الشواهدِ الناطقةِ بخروجِه عن طوقِ البشرِ، وتعرفُوا حقَّ النعمةِ في ذلك، **وتنقطعَ أعذارُكم بالكليةِ** " [1].

وقال الإمام ابن عاشور: " وكونه عربيا يفيد إبانة ألفاظه المعاني المقصودة للذين خوطبوا به ابتداء، وهم العرب؛ إذ لم يكونوا يتبينون شيئا من الأمم التي حولهم؛ لأن كتبهم كانت باللغات غير العربية. فهو كتاب بالعربية ليس كالكتب السالفة؛ فإنه لم يسبقه كتاب بلغة العرب. وقد أفصح عن التعليل المقصود جملة: ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢]، أي: رجاء حصول العلم لكم من لفظه ومعناه؛ لأنكم عرب، **فنزوله بلغتكم مشتملا على ما فيه نفعكم، هو سبب لعقلكم ما يحتوي عليه**، وعبر عن العلم بالعقل؛ للإشارة إلى أن دلالة القرآن على هذا العلم قد بلغت في الوضوح حدَّ أن ينزل مَنْ لم يحصل له العلم منها منزلة مَنْ لا عقل له، وأنهم ما داموا معرضين عنه؛ فهم في عداد غير العقلاء " [2].

قلت: فتضمن كلام الشيخ أن إعراضهم دليل على عطب أداة العلم، وسببه، وهي العقل، وتلف الوسيلة، ونفي السبب أدخل في نفي المسبب.

فإذا انتفت أداة العلم؛ انتفت إمكانية تحصيله بطريق المبالغة؛ إذ إنه من المقرر عقلا: أن انتفاء السبب يدل على انتفاء المسبب، وأن انتفاء اللازم أعدل شاهد على انتفاء الملزوم.

---

[1] تفسير أبي السعود: ٨ / ٣٩.

[2] التحرير والتنوير: ١٢ / ٢٠١ وما بعدها بتصرف.

وقال عند قوله ﴿وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾[الزخرف: ٢، ٣]: " أقسم بـ چدِ يچ، وهو القرآن، على أن القرآن جعله الله تعالى چبحچ: **واضح الدلالة**؛ فهو حقيق بأن يصدقوا به؛ لو كانوا غير مكابرين، ولكنهم بمكابرتهم كانوا كمَنْ لا يعقلون " (١).

وقال الشيخ المراغي عند قوله جل جلاله: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾[الزخرف: ٣]: " أي: إنا أنزلناه قرآنا عربيا؛ إذ كنتم أيها المنذرون به عربا؛ لتعقلوا ما فيه من عبر، ومواعظ، ولتتدبروا معانيه، ولم ينزله بلسان العجم؛ حتى لا تقولوا: نحن عرب، وهذا كلام أعجمي لا نفقه شيئا مما فيه " (٢).

وأما حيثية تحقق التقوى، والذكرى: فقال الحق عز وجل:﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا وَصَرَّفۡنَا فِيهِ مِنَ ٱلۡوَعِيدِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ أَوۡ يُحۡدِثُ لَهُمۡ ذِكۡرٗا ﴾ [طـــــه: ١١٣].

قال العلامة أبو السعود معللا: " ﴿قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا﴾؛ ليفهمه العربُ، ويقفوا على ما فيه من النظم المعجزِ الدالِّ على كونِه خارجا عن طَوْق البشرِ، نازلا من عند خلاّق القُوى والقدر... ﴿لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾، أي: كي يتقو الكفرَ والمعاصيَ بالفعل، ﴿أَوۡ يُحۡدِثُ لَهُمۡ ذِكۡرٗا﴾: اتعاظا، واعتبارا " (٣).

---

(١) التحرير والتنوير: ٢٥ / ١٥٩ بتصرف يسير.

(٢) تفسير المراغي: ٢٥ / ٦٨.

(٣) تفسير أبي السعود: ٦ / ٤٤ بتصرف يسير.

فـ " قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾: هو تعليل لنزول القرآن بلسان عربي مبين؛ فبهذا اللسان العربي المبين، يقع منه العلم، ومن العلم يكون الإيمان، والتقوى، ومثل هذا قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا... ﴾ [طه: ١١٣] " [١].

قال الزمخشري معللا: " ليكونوا بحيث يراد منهم ترك المعاصي، أو فعل الخير والطاعة. والذكر: يطلق على الطاعة والعبادة " [٢].

وقال الإمام الرازي: " والمراد: اتقاء المحرمات، وترك الواجبات،... أما قوله: ﴿أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾: فالمعنى: إنا إنما أنزلنا القرآن؛ لأجل أن يصيروا متقين، أي: محترزين عما لا ينبغي، أو يحدث القرآن لهم ذكرا يدعوهم إلى الطاعات، وفعل ما ينبغي " [٣]. **وقال الإمام الألوسي معقبا:** " وفي الكلام إشارة إلى أن مدار الأمر: التخلية، والتحلية. والمعنى: إنما أنزلنا القرآن؛ ليصيروا محترزين عن فعل ما لا ينبغي، أو يحدث لهم ذكرا يدعوهم إلى فعل ما ينبغي؛ فالكلام مشير -أيضا- إلى التخلية، والتحلية " [٤].

وأما حيثية تأتي الإنذار: فقال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا... ﴾ [الشورى: ٧].

---

[١] التفسير القرآني: ١٢ / ١١٤٧.

[٢] الكشاف: ٣ / ٩٠.

[٣] تفسير الرازي: ٢٢ / ١٠٣ بتصرف.

[٤] روح المعاني: ٨ / ٥٧٦ بتصرف.

قال الإمام الماتريدي مقررا جهتها: " ليكون أقرب إلى الفهم، **وأولى أن يكون حجة عليهم، وأبلغ في الحجاج**؛ لأنه ذكر فيه الأنباء السالفة، والأخبار المتقدمة باللسان العربي، غير لسان تلك الأنبياء، ومن غير أن يختلف إلى أحد من أهل ذلك اللسان؛ لتوهم التعلم منهم بلسانهم، والنقل بلسان نفسه؛ فدل أنه إنما عرف بالله تعالى " [1].

وقال ابن عطية شارحا: " قوله سبحانه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا ... ﴾ [الشورى:٧]: مبينا لهم، لا يحتاجون معه إلى آخر سواه، ولا محتج غيره؛ إذ فهمه متأت لهم، ولم يكلفك إلا إنذار مَنْ ذكر " [2]. **وقال – أيضا –** : " ﴿عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف: ٣]، معناه: بلسانكم؛ **لئلا يبقى لكم عذر**"[3].

وقال الإمام الألوسي معللا: " نزل بلغة عربية: واضحة المعنى، ظاهرة المدلول؛ **لئلا يبقى لهم عذر** " [4].

هذا: ومن كمال الاحتجاج، وتتمة قطع المعذرة: أن لسان العربية خير شاهد على أن الوحي إنما هو رسالة السماء إلى الأرض، وليس في مقدور البشر أن يأتوا بمثله، وبهذا يبطل زعم الزاعمين، وشبهة المبطلين، في كون القرآن من صنع بشر، لا من كلام رب العالمين.

---

[1] تفسير الماتريدي: ٩ / ١٠٤ وما بعدها بتصرف يسير.

[2] المحرر الوجيز: ٥ / ٢٧ بتصرف يسير.

[3] المحرر الوجيز: ٥ / ٤٥ بتصرف.

[4] تفسير الألوسي: ١٠ / ١٢٣.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ [النحل: ١٠٣].

قال العلامة أبو السعود مقدرا، ورادا على هذه الفرية: "﴿ وَهَٰذَا ﴾ [النحل: ١٠٣]، أي: القرآنُ الكريم (﴿ لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾: ذو بيان وفصاحة، والجملتان مستأنفتان؛ لإبطال طعنهم. **وتقريرُه:** أن القرآن معجزٌ بنظمه، كما أنه معجزٌ بمعناه، فإن زعمتم: أن بشرا يعلّمه معناه، فكيف يعلّمه هذا النظمَ الذي أعجز جميعَ أهل الدنيا؟! ثم أوغل في الرد قائلا: والتشبثُ في أثناء الطعن بأذيال أمثالِ هذه الخرافاتِ الركيكة، دليل كمال عجزهم " (١).

قلت: ومن ثَمَّ فيبلغ دفع شبهتهم مبلغه، ويتم إبطال طعنهم بمقالتهم الواهية على آكد وجه، وأبلغه!

ومن هذا المعين قال الحق جل جلاله: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤٤].

قال الإمام البقاعي شارحا، ومقدرا: " ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ ﴾، أي: هذا الذكر بما لنا من العظمة والقدرة ﴿ قُرْءَانًا ﴾، أي: على ما هو عليه من الجمع ﴿ أَعْجَمِيًّا ﴾، أي: لا يفصح، وهو مع ذلك على وجه يناسب عظمتنا؛ ليشهد

(١) تفسير أبي السعود: ٥ / ١٤٢ بتصرف يسير.

كل أحد أنه معجز للعجم، كما أنه معجز للعرب، وأعطيناك فهمه، والقدرة على إفهامهم إياه؛ ﴿لَّقَالُواْ﴾ ، أي: هؤلاء المتعنتون فيه كما يقولون في هذا بغيا وتعنتا: ﴿لَوۡلَا﴾، أي: هلا، ولم لا ﴿فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓ﴾، أي: بينت على طريقة نفهمها بلا كلفة... " (١).

وقال العلامة أبو السعود مبينا المراد: " وأيَا ما كانَ **فالمقصودُ:** بيانُ أنَّ آياتِ الله تعالَى على أي وجهٍ جاءتهم؛ وجدوا فيها متعنتا يتعللونَ به"(٢).

إلا أن حكمة العليم الخبير قد تجلت في أن سد الباب عليهم، وأغلق نوافذ مطاعنهم، وجفف روافد شبهتهم، وأقام أنياب قطع أعذارهم، وأشهر أسلحة دحض باطلهم.

قال الشيخ الشعراوي: " فجعلناه قرآنا عربيا، في أمة عربية؛ ليفهموا عنك البلاغ عن الله تعالى في البشارة والنذارة، ولو جاءهم بلغة أخرى؛ لقالوا كما حكى (٣) القرآن عنهم: ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا لَّقَالُواْ لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَأَعۡجَمِيّٞ وَعَرَبِيّٞ﴾ [فصلت: ٤٤] " (٤).

---

(١) نظم الدرر: ١٧ / ٢٠٥ بتصرف يسير.

(٢) تفسير أبي السعود: ٨ / ١٦ .

(٣) **هذا:** وقد تحرج البعض من استعمال لفظ (حكى) نسبة إلى الله تعالى محتجا بأن الحكاية: الإتيان بمثل الكلام، وكلامه سبحانه لا مثيل له، ومن ثَمَّ يرون ضرورة تجنب هذا القول. ذكر السيوطي: " لا يقال: كلام الله محكي، ولا يقال: حكى الله؛ لأن الحكاية: الإتيان بمثل الشيء وليس لكلامه مثل، وتساهل قوم؛ فأطلقوا لفظ الحكاية بمعنى الإخبار " . الإتقان في علوم القرآن: ٤ / ٢٢٨بتصرف يسير.

(٤) تفسير الشعراوي: ١٥ / ٩٢٠٤.

هذا بالنسبة إلى الحيثيات السالفة الذكر، والتي بها يتأكد إقامة الحجة عليهم، ويتقرر قطع أعذارهم بما لا غاية وراءه!

أما بيان كونهم أهل العلم به: فيتقرر في ضوء قوله جل شأنه: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ٣].

قلت: ومن هنا فقد اختلف العلماء في كون الفعل متعديا، أو لازما، كما اختلفوا في تقدير المحذوف على اعتبار التعدية.

هذا: وقد جاءت عباراتهم في تقدير متعلق العلم، بما هو أدخل في قطع أعذارهم، وأظهر في إقامة الحجة عليهم، **وتمثلت تقديراتهم في كون المحذوف:** اللسان العربي، أو الأشياء، والدلائل، أو ألفاظه، أو معانيه، أو مقداره، أو لغته، أو التوفيق إلى العلم اللدني الذي هو بمقتضى الفطرة، أو يعلمون المراد منه... إلخ.

فقال البغوي مقدرا متعلق الفعل المحذوف: "﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾: اللسان العربي، ولو كان بغير لسانهم؛ ما علموه "[1]. **وقال ابن عطية:** " وقوله تعالى: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾: الأشياء، ويعقلون الدلائل، وينظرون على طريق نظر، فكأن القرآن فصلت آياته لهؤلاء؛ إذ هم أهل الانتفاع بها، فخصوا بالذكر؛ تشريفا، ومَنْ لم ينتفع بالتفصيل؛ فكأنه لم يفصل له. وقيل: ﴿يَعْلَمُونَ﴾ متعلق في المعنى بقوله: ﴿عَرَبِيًّا﴾، أي: جعلناه بكلام العرب ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾: ألفاظه، ويتحققون أنها لم يخرج شيء منها عن كلام العرب، وكأن الآية رادة على مَنْ زعم: أن في كتاب الله

---

[1] تفسير البغوي: ٤ / ١٢٤.

سبحانه ما ليس في كلام العرب، فالعلم على هذا التأويل أخص من العلم على التأويل الأول، والأول أشرف معنى، وبين أنه ليس في القرآن إلا ما هو من كلام العرب إما من أصل لغتها، وإما عربته من لغة غيرها، ثم ذكر في القرآن وهو معرب مستعمل " [١]. **وتبعه الإمام أبو حيان** [٢].

وقال الإمام الماتريدي مقدرا: " أي: أنزله بلسان يعلمونه، ويفهمونه، لا بلسان لا يعلمونه، ولا يفهمونه، أي: أنزله بلسانهم. ويحتمل ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾، أي: ينتفعون بعلمهم، أي: حصل إنزاله لقوم ينتفعون، فأما مَنْ لم ينتفع به؛ فلم يحصل إلا الإنزال له، والله تعالى أعلم " [٣]. **ووافقه الخازن**[٤].

وقدره العلامة أبو السعود: " ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾، أي: معانيَهُ؛ لكونِه على لسانِهم. وقيلَ: لأهل العلم والنظر؛ لأنهم المنتفعونَ به " [٥]. **وتبعه الإمام الألوسي** [٦]. **والقاسمي مضيفا:** "﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾، أي: مقداره " [٧].

---

[١] المحرر الوجيز: ٥ / ٤ بتصرف.

[٢] البحر المحيط: ٩ / ٢٨٤.

[٣] تفسير الماتريدي: ٩ / ٥٩ بتصرف يسير.

[٤] تفسير الخازن: ٤ / ٨٢.

[٥] تفسير أبي السعود: ٨ / ٢.

[٦] روح المعاني: ١٢ / ٣٤٨.

[٧] محاسن التأويل: ٨ / ٣٢٤.

وثُمَّة من العلماء من أمعن النظر في المراد؛ فقال مقدرا: " ﴿لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾، أي: يوفقون من لدنه سبحانه على العلم اللدني، والفطرة الأصلية التي هي المعرفة والتوحيد "[1].

وقال ابن عاشور: " وقوله: ﴿لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾: صفة لـ چبجچ: ظرف مستقر، أي: كائنا ﴿لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ باعتبار ما أفاده قوله: چبجبحچ من معنى وضوح الدلالة، وسطوع الحجة " [2].

وقال الإمام المراغي: " أنزل القرآن كله كذلك على نمط واحد قرآنا عربيا؛ ليفهمه العرب، ويقفوا على ما فيه من النظم البديع، والأسلوب العجيب الخارج عن طوق البشر"[3].

وقيل: "﴿لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾: هذه اللغة حق العلم؛ فيجيلون النظر في مبانيه، ويتفقهون في معانيه، ويعرفون المراد منه " [4].

ومن ثَمَّ فكان الإخبار بـ " كونه ﴿قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا﴾ أشد إلزاما لهم بفهمه"[5].

قلت: تجلى مما سبق: أن ترك مفعول: ﴿يَعۡلَمُونَ﴾قد أسهم في القول بالتعدي، واللزوم، كما أكد عموم المحذوف على تقديره؛ ليتناول كل ما يصلح

---

(1) الفواتح الإلهية: ٢ / ٢٧٢.

(2) التحرير والتنوير: ٢٤ / ٢٣١ وما بعدها .

(3) تفسير المراغي: ١٦ / ١٥٤.

(4) بيان المعاني، لابن ملا حويش: ٤ / ١.

(5) التحرير والتنوير: ٢٤ / ٢٣٥.

له، فلا تبقى تعدية إلا أفهمها، ولا محذوف إلا شمله؛ مما يؤكد أن الإيجاز قد أثمر إطنابا له وقعه، ودلالته، الأمر الذي يستدعيه المقام، ويتطلبه المرام.

قال بديع الزمان: " ثم إنه أطنب؛ بإيجاز ترك المفعول... فتدبر!" [1].

قلت: ففهم العالم الجليل الإطناب من وراء حذف المفعول، إلا أن الحال أنه حاصل من **جهتين:**

الأولى: إمكانية اللزوم، والتعدي، وما يستتبعه ذلك، من: تعدد المعاني، وثراء الدلالات، وانبعاث الإشارات، وتنوع الإيحاءات، وإثمار الفوائد المترتبة على كلٍ.

الثانية: تعدد المفعول المحذوف، وعمومه.

ومن ثَمَّ يتأكد بلوغ تلك المفردة من الإعجاز البياني مبلغه، ويتقرر إسهامها – ذكرا، وحذفا – في قطع المعذرة، وإقامة الحجة على آكد وجه، وأبلغه!

هذا بالنسبة لوصف العربية الجاري نعتا للقرآن. أما بالنسبة له نعتا للسان؛ فقد تناوله السادة المفسرون: شرحا، وتعليلا.

ومنهم – على سبيل المثال – الإمام البقاعي؛ فقال معرجا على وجه التناسب بين: مقصد سورة [الشعراء]، وورود الوصف بها: " ولما كان القصد من السورة التسلية عن عدم إيمانهم؛ بأنه لسفول شأنهم، لا لخلل في بيانه، ولا لنقص في شأنه، قال تعالى **موضحا لتمكنه من قبله:** ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ

[1] إشارات الإعجاز، لبديع الزمان النورسي: صـ ١٤٣ .

مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء: ١٩٥]، أي: بين في نفسه، كاشف لما يراد منه، غير تارك لبسا عند مَنْ تدبره حق تدبره، على ما يتعارفه العرب في مخاطباتها، من سائر لغاتها، بحقائقها ومجازاتها، على اتساع إراداتها، وتباعد مراميها في محاوراتها، وحسن مقاصدها في كناياتها واستعاراتها، ومَنْ يحيط بذلك حق الإحاطة غير العليم الحكيم الخبير البصير، وإنما كانت عربيته وإبانته موضحة لسبقه قلبه؛ لأن مَنْ تكلم بلغته – فكيف بالبين منها – تسبق المعاني الألفاظ إلى قلبه، فلو كان أعجميا؛ لكان نازلا على السمع؛ لأنه يسمع أجراس حروف لا يفهم معانيها؛ **ففيه تقريع عظيم لمَنْ يعرف لسان العرب، ولا يؤمن به** " [1].

قلت: فدلت تلك النصوص – على كثرتها – على أنه لا ثُمَّتْ عذر لهم في التكذيب، ولا شبهة في الإنكار؛ إذ قد **أعلنت:** مدى تمكنهم منه، مخبرة: أنهم أهل الفهم عنه، وسبيل الوقوف عليه، **وقررت:** حيثيات دواعي المسارعة إليه، وضرورة الإذعان له، مفصحة عن توفر الدواعي لذلك؛ لما فيه من النظم الرائق، والسبك الفائق، والإحكام المتين، والاتساق المبين؛ ومن ثَمَّ فقد قامت عليهم الحجة، وزالت عنهم المحجة بما لا غاية وراءه!

---

[1] نظم الدرر: ١٤ / ٩٧ وما بعدها بتصرف.

المبحث الرابع

حصول الامتنان، ولفت النظر للاتباع

كان من مقتضيات إيثار اللغة العربية لسانا للوحي، التنويه بشأن تلك الأمة، وإعلاء مكانتها، والإشادة باصطفائها؛ إذ نزل الوحي بلسانهم، ونسب إليهم دون غيرهم؛ مما يحقق الامتنان، ويوفر بواعث الإذعان، ودوافع الامتثال، وروافد التشريف، الحاملة على الاتباع، وإنما تتجلى حيثيات ذلك في كونه نزل بلسانهم، وبما يفهمونه من لغتهم، ونسب إليهم دون غيرهم؛ مما يؤكد أنهم أهل العلم به، ويقرر: تمكنهم من رسالة السماء –قراءة، وفهما–.

كما أنهم هم أول مَنْ يفهم عنه، ويقف على ما فيه من خير، بلا واسطة، ويعلمون مدى إعجازه، فهو بالنسبة إليهم كالمحيط الممتلئ بالخير والبركة، وهم أول مَنْ يغترف منه، وينالون من خيره، وليس هذا فحسب بل هم مَنْ بيدهم إيصاله إلى غيرهم؛ فهم الواسطة بينه وبين مَنْ عداهم؛ فتتجلى آثار رحمته تعالى بهم، وتظهر براهين تفضيله إياهم، ولا أسمى من تلك الكرامة، ولا أبعث على الإيمان من ذه المنة، وهاته المكانة. **وفيما يلي تفصيل ذلك:**

<u>أولا:</u> حيثية نزوله بلسانهم، ونسبته إليهم: وفي تقريرها **قال الإمام الماتريدي:** "﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾: أنزله بلسان العرب "[1]. **وقال الإمام ابن عاشور:** " ﴿عَرَبِيًّا﴾: نسبة إلى العربية، أي: لغة العرب؛ لأن كونه

---

[1] تفسير الماتريدي: ٦ / ٢٠٥.

﴿قُرْءَانًا﴾ يدل على أنه كلام، فوصفه بكونه ﴿عَرَبِيًّا﴾ يفيد أنه كلام عربي " [1].

قلت: ويتفرع على تلك الحيثية الفوائد الجمه، والمنح المتعددة، والآلاء المتوافدة؛ فبهذا ثبت سهولة قراءته، وتمكنوا من فهم ألفاظه، وإدراك معانيه، والوقوف على ما فيه، **من:** فنون الهدايات، وضروب السعادات، وأفنان الحكم، والآيات؛ مما يشهد بإعجازه، ويقر بخروجه عن طوق البشر، ويقرر نزوله من عند خلاق القوى، والقدر.

وفي هذا الصدد قال الماتريدي معللا: " لكي يفقهوه، ويعرفوه " [2].
وقال الإمام الرازي: " قوله: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ٣]، يعني: إنما جعلناه عربيا؛ لأجل أن يعلموا المراد منه " [3].

وقال الإمام البيضاوي معللا: " كي تفهموه، وتحيطوا بمعانيه، أو تستعملوا فيه عقولكم؛ فتعلموا أن اقتصاصه كذلك ممن لم يتعلم القصص معجز لا يتصور إلا بالإيحاء " [4]. " **وفيه امتنان بسهولة قراءته، وفهمه.** ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾، أي: لقوم يعلمون العربية، أو لأهل العلم والنظر " [5]. وقال: " صيره كذلك؛ لكي تفهموا معانيه " [6]. **وقال الإمام النسفي:** "﴿قُرْءَانًا

---

[1] التحرير والتنوير: ٢٥ / ١٥٩ بتصرف يسير.
[2] تفسير الماتريدي: ٨ / ٦٧٨.
[3] تفسير الرازي: ٢٧ / ٥٣٩ وما بعدها بتصرف.
[4] أنوار التنزيل: ٣ / ١٥٤.
[5] أنوار التنزيل: ٥ / ٦٦.
[6] أنوار التنزيل: ٥ / ٨٦ بتصرف.

عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ ، أي: لقوم عرب يعلمون ما نزل عليهم من الآيات المفصلة، المبينة بلسانهم العربى " [1].

وقال صاحب (الهداية): " قوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾ [طه: ١١٣]، أي: أنزلناه بلغتكم أيها العرب؛ لتفهموه " [2].

وقال إسماعيل حقي مقدرا المعنى: " إنا كسوناه للقراءة كسوة العربية [3] ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف:٢]: حقائق معانيه، وأسراره، ومبانيه، وإشاراته بها؛ إذ هي لغتكم... وفى الآيات دليل على شرف اللسان العربي " [4].

وقال: " ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾[طه: ١١٣]، يعني: بلغة العرب؛ ليفهموه، ويقفوا على إعجازه، وخروجه عن حد كلام البشر " [5].

وقال الإمام الألوسي: " چبجبحچ [الزخرف: ٣]: مفصلا، واردا على أساليبهم، لا يعسر عليهم فهم ما فيه، ودرك كونه معجزا، كما يؤذن به قوله تعالى: چھ ےچ، أي: لكي تفهموه، وتحيطوا بما فيه من النظر الرائق،

---

[1] تفسير النسفي: ٣ / ٢٢٥.

[2] الهداية **إلى بلوغ النهاية**، لأبي محمد مكي القيرواني: ٧ / ٤٧٠٣ وما بعدها.

[3] " يشير به إلى أن حقيقة كلام الله تعالى منزهة في كلاميته عن: كسوة الحروف، والأصوات، واللغات، ولكن الخلق يحتاجون في تعقل معانيه الى كسوة الحروف واللغات " . روح البيان: ٤ / ٢٠٨.

[4] روح البيان: ٤ / ٢٠٨.

[5] روح البيان: ٥ / ٤٣١.

والمعنى الفائق، وتقفوا على ما يتضمنه من الشواهد الناطقة بخروجه عن طوق البشر، **وتعرفوا حق النعمة في ذلك** " [1].

فتأكد مما سبق: بالغ تمكنهم، **وتقرر** حيثية تثبتهم، وتجلى عظيم الإنعام والإكرام لهم، ووافر الامتنان عليهم.

وهذا ما ألمح إليه الزمخشري؛ حيث قال معللا حيثية نزوله على القلب، في قوله تَعَالَىٰ: ﴿ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ . بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء: ١٩٤-١٩٥]: " لأنه لو نزله باللسان الأعجمي؛ لتجافوا عنه أصلا، ولقالوا: ما نصنع بما لا نفهمه؛ فيتعذر الإنذار به، وفي هذا الوجه: أن تنزيله بالعربية التي هي لسانك، ولسان قومك، تنزيل له على قلبك؛ لأنك تفهمه، ويفهمه قومك. ولو كان أعجميا؛ لكان نازلا على سمعك دون قلبك؛ لأنك تسمع أجراس حروف لا تفهم معانيها، ولا تعيها، وقد يكون الرجل عارفا بعدّة لغات، فإذا كلم بلغته التي لقنها أولا، ونشأ عليها، وتطبع بها؛ لم يكن قلبه إلا إلى معاني الكلام يتلقاها بقلبه، ولا يكاد يفطن للألفاظ كيف جرت، وإن كلم بغير تلك اللغة وإن كان ماهرا بمعرفتها؛ كان نظره أولا في ألفاظها، ثم في معانيها، فهذا تقرير أنه نزل على قلبه؛ لنزوله بلسان عربي مبين " [2].

قلت: فبين الإمام سرا رفيعا في إيثار اللسان العربي، متمثلا في أعلى مظاهر الامتنان، وأبلغ تقرير لفيض الكريم المنان؛ فقرر: أن هذا اللسان هو

---

[1] تفسير الألوسي: ١٣ / ٦٤.

[2] الكشاف: ٣ / ٣٣٥.

سبيل ولوج الوحي إلى القلب، وطريق تمكنه منه، ومنبع فيضه عليه، وبسببه يتأكد حصول العلم، والإيمان، والتقوى؛ مما يحقق سعادة الدارين.

ومن ثَمَّ قال الإمام البقاعي مبينا وجه النظم: " ثم أتبع سبحانه ذلك بذكر الكتاب، وعظيم النعمة به؛ فقال: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ . نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ . عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ . بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٥]، فيا لها كرامة تقصر الألسن عن شكرها، وتعجز العقول عن تقديرها " [١].

وقال صاحب (المنار) مقررا مدى النفع: " ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾ [الزخرف: ٣]، أي: بين لكم بلغتكم العربية، ما لم تكونوا تعلمون، من: الدين، وأنباء الرسل، والعلم، والحكمة، والأدب، والسياسة؛ ﴿ لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾: معانيه أيها العرب، وما ترشد إليه من: مطالب الروح، ومدارك العقل، وتزكية النفس، وتثقيف مدارك الوجدان والحس، وإصلاح الاجتماع العام، المراد بها صلاح الحال، وسعادة المآل " [٢].

وقال الإمام المراغي معربا عن وجه الامتنان: " ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾ [طه:١١٣]، أي: أنزلنا القرآن كله بأسلوب عربي مبين؛ ليتفهمه العرب الذين نزل عليهم، ويتفقهوا بدراسته، ويسعدوا بالعمل بما حواه، مما فيه سعادة البشر في دنياهم، وآخرتهم " [٣].

---

[١] نظم الدرر: ١٤ / ٤ وما بعدها بتصرف.

[٢] تفسير المنار: ١٢ / ٢٠٨ بتصرف يسير.

(٣) تفسير المراغي: ١٦ / ١٥٥.

وكان من لوازم ذلك: أن فهمه متأت لهم دون واسطه. **ومن ثَمَّ قيل تقديرا، وتعليلا:** "﴿لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ [فصلت: ٣]: معانيه، ويفهمونها، وهم أهل اللسان العربي، وإنما خصوا بالذكر؛ لأنهم يفهمونها بلا واسطة؛ لكون القرآن بلغتهم، وغيرهم لا يفهمها إلا بواسطتهم " [١].

ومن لوازمه – أيضا – : انتفاء شبهة الريب عنه، وارتفاع كل شوائب اللبس، والغموض. **وفي هذا الشأن قال الإمام الألوسي مقدرا:** " ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا﴾ [الشورى: ٧]، أي: ومثل ذلك الإيحاء البديع البين المفهم ﴿أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا﴾: لا لبس فيه عليك، ولا على قومك " [٢].

كما كان من ثماره، وأولى نتائجه: الإذعان لجلاله، والانفعال بإعجازه، والامتثال بما فيه. **وفي هذا الشأن قال الإمام النسفي:** " وجعله ﴿قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا﴾ [الزخرف: ٣]؛ ليعقلوه، وليعملوا بمواجبه " [٣].

ثانيا: حيثية كونهم أول مَنْ يستقبله، وينفعل به، وما يترتب عليها من إعلاء شأنهم، والنطق بفضلهم، والتنويه باصطفائهم، وذلك؛ لأنهم بهذا أول من يغترف منه، وينال من خيره، وينتفع بهديه؛ فيحصل لهم السبق العملي، كما تقرر لهم السبق الذاتي.

ومن ثَمَّ قال الشيخ الشعراوي: " وهم أول قوم نزل فيهم القرآن " [٤].

---

[١] فتح البيان: ١٢ / ٢٢٤.

[٢] تفسير الألوسي: ١٣ / ١٤ بتصرف يسير.

[٣] تفسير النسفي: ٣ / ٢٦٥.

[٤] تفسير الشعراوي: ١١ / ٦٨٢٣ – ٦٨٢٥ بتصرف.

وليس هذا فحسب، بل كونهم المبلغين عنه، والواسطة بينه، وبين الخلق، دليل على صدارتهم، وتحقق بالغ فضلهم؛ لما هو مقرر: أن الدال على الخير كفاعله؛ فكل مَنْ يؤمن بعدهم في ميزان حسناتهم، وامتداد لهم، وشهادة على أمانتهم، في حمل الرسالة، والقيام بواجب إبلاغها.

وقيل في تقرير تا الحيثية: " قوله تعالى: ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾ [فصلت: ٣]: في هذا امتنان من الله سبحانه وتعالى على الأمة العربية، وتنويه بها، ورحمة من الله سبحانه اختصت بها؛ إذ كانت هذه المأدبة، ممدودة للعرب في ساحتهم، وكانوا هم أهلها، والداعين إليها " [١].

كما يتبين وجه الإكرام في قوله جل جلاله: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الزخرف: ٣]؛ إذ " جعل لغتها هي اللغة التي تحمل دين الله كاملا، وهو الإسلام، فجاء القرآن الكريم بلغة العرب؛ ليكون لهم حظهم الكامل منه، وليكونوا هم أول مَنْ يقطف من كرمه، ويطعم من ثمره " [٢].

وقال الإيجي عند قوله تعالى: چ ﮉ ﮊچ [الرعد: ٣٧] مقدرا: " حكمة مترجمة بلسان العرب " [٣].

قلت: وفيه من التنويه بشأن الأمة العربية، ورفع لقدرها، ولشرف لغتها، والإشادة بدورها ما لا يخفى!

---

(١) التفسير القرآني: ١٢ / ١٢٨١ بتصرف يسير.

(٢) التفسير القرآني: ١٣ / ١٠٤ وما بعدها بتصرف يسير.

(٣) تفسير الإيجي: ٢/ ٢٧٨.

ومن ثَمَّ قال الإمام الشافعي: " وأولى الناس بالفضل في اللسان: مَنْ لسانُهُ لسانُ النبي ﷺ. ولا يجوز –والله أعلم– أن يكون أهل لسانه أتباعا لأهل لسانٍ غيرِ لسانه في حرف واحد، بل كلُّ لسان تَبَع للسانه، وكلُّ أهل دين قبله فعليهم اتباع دينه. وعرَّفَنَا نعمه بما خصَّنا به من مكانه؛ فقال تعالى: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة ١٢٨]، وقال جل جلاله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الجمعة: ٢]. وكان مما عرَّف اللهُ تعالى نبيَّه ﷺ من إنْعامه، أنْ قال سبحانه: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴾ [الزخرف: ٤٤]، فخَصَّ قومَه بالذكر معه بكتابه. وقال تعالى ذكره: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٤] ، وقال عز شأنه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴾ [الشورى: ٧]، وأمُّ القرى: مكة، وهي بلده وبلد قومه، فجعلهم في كتابه خاصة، وأدخلهم مع المنذَرين عامة، وقضى أن ينذروا بلسانهم العربي، لسانِ قومه منهم خاصة " [١].

قلت: فحمل كلام الإمام مظاهر الفضل الجم، وبواعث الفخر العظيم، وروافد التكريم الجليل لأمة العرب، وبالغ الامتنان عليهم، وتشريفهم.

---

[١] الرسالة، للشافعي: صـ ٣٤ بتصرف يسير.

وقال الإمام الألوسي: " ثم لما كان أشرف الأقوام، وأولاهم بدعوته عليه الصلاة والسلام، قومه الذين بعث بين ظهرانيهم، ولغتهم أفضل اللغات؛ نزل الكتاب المبين بلسان عربي مبين، وانتشرت أحكامه بين الأمم أجمعين " [١].

" لأنهم بهذا اللسان كان معهم وحدهم مفاتح الطريق إلى هذا النور، وكان إليهم قيادة الناس جميعا إلى الهدى " [٢]. وعليه؛ فـ " غيرهم لا يفهمها إلا بواسطتهم " [٣].

قلت: فتأكد أنهم سبيل إبلاغه، وواسطة بيانه، وصراط فهمه، وإليهم القيادة، والهداية؛ لأنهم وحدهم مَنْ بيدهم مفاتح هذا النور.

وتتمة لهذه الحيثية: فقد حملت في مكنوناتها دوافع الاحتفاظ باللغة، وبواعث الفخر في الانتساب إليها. ومن ثَمَّ ختمت الآية: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ [فصلت: ٣]. بقوله: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

قال الشيخ عبد الكريم معلقا: " وفى قوله جل جلاله: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾: حث للأمة العربية، أصحاب هذه المأدبة، أن يأخذوا نصيبهم الأوفى منها، وإنه لا سبيل إلى الإفادة من خيرها الممدود، إلا بالعلم، فمَنْ كان على علم ومعرفة؛ كان حظه من هذا القرآن أوفى وأعظم.. ومَنْ حرم العلم والمعرفة؛ فلا نصيب له منه " [٤].

---

[١] تفسير الألوسي: ٧ / ١٧٦.

[٢] التفسير القرآني: ١٣ / ١٠٢ بتصرف.

[٣] فتح البيان: ١٢ / ٢٢٤.

[٤] التفسير القرآني: ١٢ / ١٢٨١ بتصرف يسير.

قلت: وفيما سبق إشارة إلى أن الأمة العربية هي القائدة بلغتها، والرائدة لكل مَنْ أراد أن يتعلم القرآن الكريم؛ فهي منارة العلم، وقلعة الدراسة والفهم. **وفيه** بشرى لمَنْ أحاط بالعربية: أنه دائما وأبدا مكانه في الصدارة، ومقامه في الريادة، وإليه تؤول الأمور، وتسند القيادة. **وفيه** – أيضا – حث على تعلمها، والإحاطة بما فيها من علوم ومعارف... إلخ، مما من شأنه الكشف عن إعجاز القرآن الكريم، والتمكن من الإفادة منه على كافة الأصعدة، وشتى المستويات؛ بلوغا إلى السعادة في الدنيا، والآخرة.

قلت: فدلت تلك النصوص – على كثرتها – على أن في إيثار العربية، واصطفائها؛ لتكون لغة التنزيل السماوي، ولسان الوحي الإلهي؛ امتنانا على العرب، وتشريفا لهم، وإعلاما بفضلهم، وتعظيما لشأنهم، وحثا لهم على الاتباع، والعمل بمقتضاه، وإرشادهم لما انطوى عليه من النفع الجم، والخير الوفير؛ لما فيه من صلاحهم في الحال، ونجاتهم وسعادتهم في المآل.

المبحث الخامس

بيان وظيفة الأمة العربية، وإعلان مسئوليتها تجاه البشرية

وإزاء ذلك الفضل الإلهي، والمنح الرباني، الذي امتن الله تعالى به على الأمة العربية؛ بأن جعل التنزيل بلسانها، ومكنها من الوقوف على إعجازه بمقتضيات لغتها؛ كان لزاما عليها القيام بدورها الذي أناطه الله تعالى بها، والمتمثل في تلك المسئولية التي هي من مقتضيات التكريم، ومستدعيات تتميم الامتنان بمكان.

فجاء كلامه سبحانه بلسانهم الذي اصطفي؛ ليكون مفتاح التعامل مع رسالة السماء؛ ومن ثَمَّ فهم الواسطة التي يتأتى بها فهم كلامه تعالى، وإبلاغه إلى الخلق.

وفي هذا الصدد قال الإمام ابن عاشور: " فقدر الله تعالى هذه اللغة أن تكون هي لغة كتابه الذي خاطب به كافة الناس، فأنزل بادئ ذي بدء بين العرب، أهل ذلك اللسان، ومقاويل البيان، ثم جعل منهم حملته إلى الأمم، تترجم معانيه، فصاحتهم وبيانهم، ويتلقى أساليبه، الشادون منهم، وولدانهم، حين أصبحوا أمة واحدة، يقوم باتحاد الدين واللغة كيانهم " [1].

وقال الشيخ عبد الكريم مبينا حقيقة اجتباء الأمة العربية: " كما أنه إحسان عظيم، ونعمة سابغة على الأمة العربية، التي اختارها الله سبحانه وتعالى؛ لتكون الأفق الذي تطلع فيه شمس الهداية المرسلة إلى العالمين، وليكون لسانها اللسان الذي ينقل إلى الناس هذا الهدى المرسل إليهم من

---

[1] التحرير والتنوير: ١٩ / ١٩٠.

ربهم. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الزخرف: ٣]. وقوله تعالى: ﴿وَسَوْفَ تُسْئَلُونَ ﴾ [الزخرف: ٤٤]، إلفات إلى هذه النعمة العظيمة التي امتن الله تعالى بها على الأمة العربية؛ إذ **اختارها لحمل هذه الأمانة العظيمة، وإنها لمسئولة عن حفظ هذه الأمانة، وعن حراستها من كل عاد يعدو عليها، كما أنها مسئولة عن أداء هذه الأمانة إلى أهلها، وإزاحة المعوقات، والعلل من طريقها**. وإلا كان الحساب العسير على أي تقصير، أو تفريط يقع من أولئك الذين حملوا هذه الأمانة: أفرادا، وجماعات. إن الدعوة إلى الإسلام، هي مسئولية هذه الأمة التي جاءت شريعة الإسلام بلسانها. وإنه لشرف عظيم لهذه الأمة، يكسو أفرادها وجماعاتها على مدى الأجيال، أثواب العزة والفخار. ولهذا الشرف العظيم ثمن عظيم، يؤديه كل مَنْ يريد أن يتحلى به، بما يبذل من جهد، ومال، وجهاد في سبيل الله تعالى، وتضحية بالنفس من أجل الدفاع عن دين الله سبحانه، وكتاب الله جل في علاه " [١].

ومن ثَمَّ قال الشيخ الشعراوي مبرزا دور الأمة: " إذن: طبيعي أن يأتي القرآن عربيا؛ لأنه نزل على رسول عربي، وفي أمة عربية... فهم الذين يستقبلون الدعوة، وينفعلون لها، ويقتنعون بها، ثم ينساحون بها في شتَّى بقاع الأرض، ومن العجيب أنهم بدعوة القرآن أقنعوا الدنيا التي لا تعرف العربية، أقنعوها بالمبادئ والمناهج التي جاء بها القرآن؛ لأنها مبادئ ومناهج لا تختلف عليها اللغات " [٢].

---

[١] التفسير القرآني: ١٣ / ١٣٧ بتصرف.

[٢] تفسير الشعراوي: ١٥ / ٩٤٠١ وما بعدها بتصرف.

قلت: فقرر الإمام دور الأمة العربية متمثلا في ما يجب عليهم إزاء أنفسهم أولا، ثم ما يجب عليهم إزاء الآخرين ثانيا؛ فعليها أن تستقبل الدعوة، وتنفعل لها، وتقتنع بها، ثم بعد ذلك يأتي واجبهم تجاه الآخرين؛ فينتشرون في بقاع الأرض؛ لنشر نور الله تعالى، ويجدوا في إبلاغ رسالته.

فالأمة مأمورة بتكميل نفسها أولا، ثم بتكميل غيرها، ونصبها أنفسها مشاعل نور للبشرية، وانصياعها في هذا لأمر مولاها ﷻ، ومكابدتها الصعاب؛ لأجل إيصال الخير لمَنْ عداها؛ لانتشالهم من الظلمات إلى النور، وهم في ذلك سائرون بخطى ثابتة، مطمئنون بحسن مثوبتهم، مستبشرون برضوان ربهم.

وحتى تتمكن الأمة من أداء تلك الوظيفة؛ كان لزاما عليها الحفاظ على لغتها، والشعور بالفخر على الانتماء لها، والعزة بالنسبة إليها، والعمل على تثقيف الآخرين بها، وإبراز مقوماتها، وخصائصها،... وغير ذلك مما هو من مقتضيات حمل الأمانة، ومتطلبات إبلاغها.

ومن ثَمَّ قيل في تقدير متعلق العلم: " ﴿لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ [فصلت: ٣]: هذه اللغة حق العلم؛ فيجيلون النظر في مبانيه، ويتفقهون في معانيه، ويعرفون المراد منه، **وفي هذه الآية إيذان بتعليم اللغة العربية للوقوف على معاني القرآن العظيم،** فيجب على كل مسلم ومسلمة أن يتعلمها؛ لأن القرآن لا يقرأ إلا بها " [1].

ومن ثَمَّ قال الإمام الشافعي: " فعلى كل مسلم أن يتعلم من لسان العرب ما بلغه جهده؛ حتى يشهد به أن لا إله إلا الله، وأن محمدا عبده

[1] بيان المعاني: ٤ / ١.

ورسوله ﷺ، ويتلوَ به كتاب الله، وينطق بالذكر فيما افتُرِض عليه من التكبير، وأُمر به من التسبيح، والتشهد، وغيرِ ذلك. وما ازداد من العلم باللسان، الذي جعله الله تعالى لسان مَنْ ختم به نبوته، وأنزل به آخر كتبه؛ كان خيرا له " [١].

وجاء في (قواطع الأدلة): " وإذا ثبت ما ذكرناه: أن الشريعة عربية؛ فينبغي للمجتهد أن يعلم من لغة العرب ما يحتاج إليه، ويعرف طريق استعمالهم، ووجوه مخارج كلامهم من مثلها " [٢].

قلت: وإنما كانت تلك المهمة من مقتضيات الامتنان – أيضا – ؛ لأن المسئولية تكريم للإنسان؛ لأنه لا يسأل إلا المكرم، كما أنها ضريبة العقل، وشهادة بتمييز البشر عمن سواهم.

قال الشيخ أبو زهرة: " فالمسئولية تكريم للإنسان؛ لأن غير المسئول هَمْل، فكان من تكريم الله تعالى له: أنه – أي: الإنسان – لم يخلق سدى، بل خلق متحملًا التبعة التي لا يتحملها غير الكرماء، وعليه؛ فمنكرو البعث رافضون للكرامة التي أكرمهم الله سبحانه بها؛ لو كانوا يعقلون " [٣].

" لأن هذا ضريبة العقل، ولا يكون الحساب والعقاب إلا للعقلاء المختارين، الذين يميزون بين الخبيث والطيب " [٤].

من ثَمَّ فقد قرر العلماء: أن " البعث والنشور والعقاب والثواب، من

---

[١] الرسالة: ١ / ٤٧ بتصرف يسير.

[٢] قواطع الأدلة، لأبي المظفر التميمي: ١ / ٢٨٠ وما بعدها بتصرف.

[٣] زهرة التفاسير: ٨ / ٤٤٢٧ بتصرف يسير .

[٤] زهرة التفاسير: ٨ / ٤٤٢٥ .

أسباب تكريم الإنسان " [1].

قلت: فتتجلى حيثية الامتنان، وتتلألأ أوجه التكريم، وبواعث الفخر، وروافد التشريف، والتعظيم، بما لا غاية وراءه!

[1] زهرة التفاسير : ٨ / ٤٤٢٧ .

المبحث السادس

الترهيب من الإعراض عن التنزيل، والتفريط بواجب الدعوة إليه

وبعد الامتنان على الأمة العربية، وإعلان واجبها، وتقرير مسئوليتها؛ يأتي دور الترهيب من إعراضها، والتعريض بسوء تلقيها، والتنديد على التفريط بواجبها، من وجوب الدعوة إليه سبحانه، وإبلاغ رسالته إلى خلقه، وتعريفهم حق نعمته سبحانه عليهم، وإعجاز كلامه المرسل إليهم، والتحذير من الإخلال بما أناطه الله جل جلاله بها، والتهديد على تفريطها، وخيانتها.

وفي هذا الصدد قال الإمام ابن عاشور مبينا وجه التناسب: " ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ... ﴾ [الرعد:٣٧]: لما ذكر حال تلقِّي أَهل الكتابين للقرآن عند نزوله؛ عَرَّج على حال العرب في ذلك؛ بطريقة التعريض بسوء تلقِّي مشركيه له مع أَنهم أَولى الناس بحسن تلقيه؛ إذ نزل بلسانهم مشتمِلًا على ما فيه صلاحهم، وتنوير عقولهم. وقد جعل أهم هذا الغرض: التنويه بعلو شأن القرآن: لفظا، معنى. وأدمج في ذلك تعريض بِالمشركين من العرب " [1].

وقال – أيضا – : " و﴿عَرَبِيًّا﴾ [طه: ١١٣] صفة ﴿قُرْءَانًا﴾، وفيه تعريض بالامتنان على العرب، **وتحميق للمشركين منهم**؛ حيث أعرضوا

---

[1] التحرير والتنوير: ١٣ / ١٥٩ بتصرف يسير.

عنه، وكذبوا به، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ " (١).

وفي هذا المعنى قال تعالى: ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴾ [المؤمنون: ٧١].

قال العلامة أبو السعود شارحا: " استئناف مسوق؛ لبيان أن أهواءَهم الزَّائغة التي ما كرهوا الحقَّ إلا لعدم موافقته إيَّاها مقتضيةٌ للطَّامةِ. وفيه من تنويهِ شأنِ الحقِّ، والتَّنبيهِ على سُموِّ مكانه ما لا يخفى. ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ ﴾: انتقالٌ من تشنيعهم بكراهةِ الحقِّ الذي به يقومُ العالمُ، إلى تشنيعهم بالإعراضِ عمَّا جُبلَ عليه كلُّ نفسٍ من الرَّغبةِ فيما فيه خيرُها، **والمرادُ بالذِّكرِ**: القرآنُ الذي هو فخرُهم وشرفهم، أي: بل أتيناهُم بفخرهم وشرفهم الذي كان يجبُ عليهم أنْ يقبلُوا عليه أكملَ إقبالٍ، ﴿فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴾، أي: فخرهم وشرفهم خاصَّةً، لا عن غير ذلك مما لا يُوجبُ الإقبالَ عليه، والاعتناءَ به، وفي وضع للظاهر موضعَ الضَّميرِ مزيدُ تشنيعٍ لهم، وتقريعٍ " (٢).

ومن ثَمَّ قال ابن عاشور: ﴿ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴾ [ص:٦٨]: " توبيخ لهم، وتحميق " (٣).

---

(١) التحرير والتنوير: ١٦ / ٣١٤ بتصرف يسير.

(٢) إرشاد العقل السليم: ٦ / ١٤٤ بتصرف.

(٣) التحرير والتنوير: ٢٣ / ٢٩٧.

" إذ ليس أبعد في السفاهة، ولا أوغل في الحمق، ممن يدعى إلى ما فيه خيره، وعزه، ورفعته، ثم يأباه، ويؤثر الإسفاف والتدلي إلى منازل الهوان والضياع! " [1] .

وقال ابن عاشور عند قوله جل جلاله: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾[الزمر :٢٨]: " **والمقصود من هذه الحال: <u>التورك على المشركين</u>؛** حيث تلقوا القرآن تلقي مَنْ سمع كلاما لم يفهمه؛ كأنه بلغة غير لغته، لا يعيره بالا، كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الدخان: ٥٨]، مع التحدي لهم بأنهم عجزوا عن معارضته، وهو من لغتهم"[2].

وقال – أيضا – : " وقد تكرر التنويه بالقرآن من هذه الجهة، كقوله: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٥]، ولهذا؛ فرع عليه ذم الذين أعرضوا عنه، بقوله هنا: ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [فصلت: ٤]، وقوله هنالك: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ . لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [الشعراء: ٢٠٠– ٢٠١] " [3].

---

(1) التفسير القرآني: ٩ / ١١٦١ وما بعدها بتصرف يسير.

(2) التحرير والتنوير: ٢٣ / ٣٩٨. **وقال في موضع آخر معلنا سر الوصف:** " وثانيهما: التورك على المعاندين من العرب حين لم يتأثروا بمعانيه؛ بأنهم كمَنْ يسمع كلاما بلغة غير لغته " . التحرير والتنوير: ٢٥ / ١٦١ بتصرف يسير.

(3) التحرير والتنوير: ٢٤ / ٢٣١ بتصرف يسير.

وعلى هذا النحو جاء قوله تعالى: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾**[الزخرف: ٥].**

قال الإمام الباقلاني معلقا: " تأمل قوله تعالى: ﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴾في شدة التنبيه على تركهم الحق، والإعراض عنه " [١].

وقد ذكر الإمام القرطبي أوجها في النظم؛ فقال مقدرا: " المراد بالذكر العذاب، أي: أفنضرب عنكم العذاب، ولا نعاقبكم على إسرافكم وكفركم. وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: المعنى: أفحسبتم أن نصفح عنكم العذاب، ولما تفعلوا ما أمرتم به. وعنه –أيضا –: أن المعنى: أتكذبون بالقرآن ولا تعاقبون... وقيل: أفنمسك عن إنزال القرآن من قبل أنكم لا تؤمنون به؛ فلا ننزله عليكم. قال قتادة: والله لو كان هذا القرآن رفع حين ردته أوائل هذه الأمة؛ لهلكوا، ولكن الله تعالى ردده، وكرره عليهم برحمته"[٢].

قلت: فتأكد مما سبق: بالغ التهديد، وأكيد الوعيد، وغاية التعريض، والتنديد، على وقوع الإعراض، والتفريط.

---

[١] إعجاز القرآن، للباقلاني: صـ ٢٨٢.

[٢] تفسير القرطبي: ١٦ / ٦٢ بتصرف.

المبحث السابع

تقرير أن اللغة العربية هي مفتاح التعامل معه، وسبيل الكشف عن إعجازه

قد حمل الوصف (عربي) في طياته رسالة، مؤداها: أنه لا يمكن فهم كلامه جل جلاله، ولا يتأتى الوقوف على أسراره، وحقيقة إعجازه إلا من خلال لغته التي بها نزل، ولسانه الذي عليه اعتمد؛ فهي: طريق ولوج ساحته، وبلوغ هدايته، وسبيل الاغتراف من فيضه، ومبعث الاعتراف بفضله، ومنبع تقرير هيمنته، ومن ثُمَّةْ إثبات إلهيته.

قال الإمام الطبري: " وكلّ كتاب أنزله على نبي، ورسالة أرسلها إلى أمة، فإنما أنزله بلسان مَنْ أنزله أو أرسله إليه. وكتاب الله تعالى الذي أنزله إلى نبينا محمد ﷺ، بلسان محمد ﷺ. وإذْ كان لسان محمد ﷺ عربيًّا؛ فبيّنٌ أن القرآن عربيٌّ. وبذلك – أيضًا – نطق محكم تنزيل ربنا، فقال جل ذكره: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[يوسف:٢]. وقال سبحانه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ۝ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ۝ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ۝ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ۝ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ۝ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [الشعراء:١٩٥]. **ومن ثَّم فالواجبُ: أن تكون معاني كتاب الله سبحانه المنزل على نبينا محمد ﷺ، لمعاني كلام العرب موافقةً، وظاهرُه لظاهر كلامها ملائمًا**، وإن باينه كتابُ الله تعالى بالفضيلة التي فضَلَ بها سائرَ الكلام والبيان " [1].

---

[1] تفسير الطبري: ١ / ١٢ بتصرف.

وقال الإمام الرازي: " ذهب أكثر المتكلمين إلى أنه **يجب على المكلف تنزيل ألفاظ القرآن على المعاني التي هي موضوعة لها بحسب اللغة العربية**، فأما حملها على معان أخر لا بهذا الطريق، **فهذا باطل قطعا**،... والذي يدل على هذا: أنه إنما سماه عربيا؛ لكونه دالا على هذه المعاني المخصوصة بوضع العرب، وباصطلاحاتهم، وذلك يدل على أن دلالة هذه الألفاظ لم تحصل إلا على تلك المعاني المخصوصة، وأن ما سواه فهو باطل " [1].

وقال رادا على المعتزلة في كون الشرع قد نقل بعض الألفاظ عن مسمياتها اللغوية: " قالت المعتزلة: لفظ الإيمان والكفر والصلاة والزكاة والصوم والحج، ألفاظ شرعية لا لغوية، والمعنى: أن الشرع نقل هذه الألفاظ عن مسمياتها اللغوية الأصلية إلى مسميات أخرى، **وعندنا: أن هذا باطل**، وليس للشرع تصرف في هذه الألفاظ عن مسمياتها إلا من وجه واحد، **وهو**: أنه خصص هذه الأسماء بنوع واحد من أنواع مسمياتها. مثلا: الإيمان: عبارة عن التصديق؛ فخصصه الشرع بنوع معين من التصديق، والصلاة: عبارة عن الدعاء؛ فخصصه الشرع بنوع معين من الدعاء، كذا القول في البواقي " [2].

وقال الشيخ أبو زهرة مقررا أن اللغة هي مفتاح فهمه: " چبجبحچ [يوسف:٢]، أي: أنزلناه كتابا يقرأ عربيا، وليس أعجميا، فهو قرآن عربي، وليس بأعجمي، وهذا النص يدل على أن القرآن المعجز هو العربي، وليست

---

[1] تفسير الرازي: ٢٧ / ٥٣٩ وما بعدها بتصرف.

[2] تفسير الرازي : ٢٧ / ٥٣٩ بتصرف يسير.

ترجمته قرآنا [١] ؛ لأنها من عبارات البشر، ولأن الترجمة لَا يمكن أن تكون محققة لمعاني القرآن؛ إذ **هو عميق يغوص فيه الغواصون على الحقائق، وإنه محدد المعاني، تزيد المعاني في نفس القارئ بمقدار ما يزداد إدراكه، وهو واضح لكل إنسان بمقدار إدراكه،** فالأمي يدرك منه بمقدار ما تتسع له طاقته العلمية، والعالم بالكون تتسع له المعاني بمقدار طاقته. وقال تعالى: چڈ ژچ، أي: رجاء أن تعقلوا معانيه، وما يدعو إليه، وما يتضمنه من بلاغة معجزة، وما فيه من بلاغ للناس، والرجاء من الناس لَا من الله سبحانه، أي: لعلكم تكونون في وضع مَنْ يرجو الإدراك السليم، والله عليم بما تخفي الصدور " [٢].

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب: " وأنه بهذا اللسان هو نعمة جليلة أنعم الله بها على العرب، الذين كان معهم وحدهم **مفاتح** الطريق إلى هذا النور، وكان إليهم قيادة الناس جميعا إلى الهدى " [٣].

وعليه فقد قرر الإمام الرازي: أن " الذي لا يفهم من العربية شيئا؛ لم يفهم من القرآن شيئا البتة " [٤].

---

[١] وقال: " **والوصف الثاني:** أنه عربي؛ فلا يعد قرآنا ما ليس بعربي، فترجمة القرآن لَا تعد قرآنا بل إنه لا يمكن ترجمته قط كما قرر العلماء، وكما هو الحق في ذاته، وإذا كان قد رُوي عن أبي حنيفة: أنه أجاز قراءة الفاتحة بالفارسية، فذلك على أنها دعاء، لَا على أن الترجمة قرآن، ولذا؛ لَا تجب سجدة التلاوة بقراءة الترجمة، ومع ذلك فالرواية الصحيحة: أنه رجح ذلك، والله أعلم " . زهرة التفاسير: ٩/ ٤٧٩٤.

[٢] زهرة التفاسير: ٧ / ٣٧٩٥ وما بعدها بتصرف.

[٣] التفسير القرآني: ١٣ / ١٠٢.

[٤] تفسير الرازي: ١ / ١٨٦.

ومن ثَمَّ قال الإمام الشاطبي: " فمَنْ أراد تفهمه، فمن جهة لسان العرب يفهم، ولا سبيل إلى تطلب فهمه من غير هذه الجهة " [1].

وقال ابن عاشور كاشفا سر الوصف: " ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ٣] **فهذا تحد لهم، ووصف للقرآن بصفة الإعجاز** " [2].

قلت: فتمهد مما سبق: أن اللغة العربية إنما هي السبيل إلى فهمه، والوقوف عليه، والمنبع في تحقق الإفادة منه، والمفتاح الذي به يتأتى بلوغه، والاهتداء بهديه، والإذعان لجلاله، والطريق المتعين لإدراك إعجازه، والإقرار بإلهيته؛ مما يقرر حيثية الامتنان على الأمة العربية، ويشيد بفضلها، وينوه بمكانتها، ويؤكد واجبها إزاء البشرية، ويحذر من الإخلال بدور إبلاغها، وهدايتها.

---

[1] الموافقات، للشاطبي: ٢ / ١٠٢.

[2] التحرير والتنوير: ٢٤ / ٣١٢ بتصرف.

تتمة

تبين مما سبق أن الله تعالى قد وصف القرآن الكريم في عشر مواضع بأنه عربي، وقد تقرر في ثنايا تي الدراسة أسباب اصطفاء اللغة العربية؛ لتكون لغة التنزيل، ولسان الوحي. وتتمة لهذا؛ أعرض تساؤلا أورده العلماء، **مؤداه:** هل يوجد في القرآن ألفاظ غير عربية؟

فقال الإمام الشافعي معقبا على وصف القرآن بكونه عربيا: " فأقام سبحانه حجته بأن كتابه عربي في كل آية ذكرناها، ثم أكد ذلك بأن نفى عنه جل ثناؤه كلَّ لسان غير لسان العرب في آيتين من كتابه؛ فقال تبارك وتعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ [النحل: ١٠٣]. وقال عز وجل: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ﴾ [فصلت: ٤٤]"[(١)].

وقال أبو عبيد: " نزل القرآن بلسان عربى مبين، فمَنْ زعم: أن فيه غير العربية؛ فقد أعظم القول، ومَنْ زعم: أن: ﴿ طه ﴾ [طه: ١] بالنّبطيّة؛ فقد أكبر، وإن لم يعلم ما هو؛ فهو افتتاح كلام، وهو اسم للسورة وشعار لها [(٢)]. وقد يوافق اللفظ اللفظ، ويقاربه، ومعناهما واحد، وأحدهما بالعربية، والآخر

---

(١) الرسالة: ١ / ٣٤ بتصرف يسير.

(٢) الصاحبي، لابن فارس: صـ ٣٣.

بالفارسية أو غيرها. فمن ذلك: الإستبرق بالعربية، وهو: الغليظ من الدّيباج، وهو بالفارسية: إستبره، وكوز، وهو بالعربية: جوز، وأشباه هذا كثير " [1].

قال ابن فارس معلقا: " **تأويله:** أنه أتى بأمر عظيم وكبير. وذلك؛ أن القرآن لو كان فيه من غير لغة العرب شيء؛ لتوهم متوهم: أن العرب إنما عجزت عن الإتيان بمثله؛ لأنه أتي بلغات لا يعرفونها، **وَفي ذلك ما فيه**"[2].

وقال بعضهم: " ليس في القرآن شيء بغير العربية. **دليلنا:** قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾ [يوسف:٢]. وقوله سبحانه في آية أخرى: ﴿ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا غَيۡرَ ذِي عِوَجٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴾ [الزمر: ٢٨]. وآيات كثيرة في هذا المعنى؛ فثبت أن جميع القرآن عربي لا شيء سواه. **ولأن** الله تعالى تحدى العرب بالإتيان بمثل هذا القرآن، وبمثل سورة منه، فلولا أن القرآن كله عربي؛ لما صح أن يتحداهم بأن يأتوا بما ليس في لسانهم، ولا يحسنونه؛ فثبت أنه كله عربي لا شيء سواه. **واحتج المخالف:** بأن النبي ﷺ مبعوث إلى أهل اللغات كلها؛ فيجب أن يكون في كتابه من سائر اللغات. **والجواب:** أن هذا مطرح بالإجماع، فإنه ليس في القرآن من الزنجية، ولا من التركية، ولا من الخوارزمية، وهو مبعوث إلى كل هؤلاء. وعلى أنه لو اعتبر ما ذكروه؛ لكان يجب أن يكون في القرآن من كل لغة قدر يقع به التبليغ، وإلا فإذا لم يكن فيه ما يقع به التبليغ؛ لم يكن له معنى. **ثم نقول:** النبي ﷺ وإن كان قد بُعِثَ إلى الكافة إلا أن المقصود: العرب، الذين هم أهل الفصاحة واللسان، وغيرهم تبع لهم، فإذا بلغ العرب دخل الباقون على وجه التبع لهم،

---

[1] مجاز القرآن، لأبي عبيد: ١ / ١٧ وما بعدها.

[2] الصاحبي: صـ ٣٣.

كما أن موسى عليه السلام لما أعجز السحرة؛ كان الناس تبعا لهم، وكذلك عيسى عليه السلام مع الطب. **واحتج**: بأنا نجد في القرآن شيئا بغير العربية، نحو قوله: ﴿ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴾ [عبس: ٣١]. (الأب): لا يعرف في العربية [١]؛ فثبت: أنها بغير العربية. **والجواب**: أن هذه الأشياء عربية، يجهلها بعض العرب، ويعرفها البعض. وروي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أنه قال: ما كنت أعرف كلمات من القرآن بلسان قومي؛ حتى عرفتها من غيرهم. من ذلك قوله جل جلاله: ﴿ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [فاطر: ١]. سمعت امرأة تقول: أنا فطرته، يعني: ابتدأته، فعلمت أنه أراد: مبتدأ السموات، ومنشأها. والذي يبين صحة هذا، وأن هذه عربية: أن الله تعالى أضاف ذلك إليهم؛ فاقتضى الظاهر أن الكل لغة لهم " [٢].

---

[١] قد أخرج الإمام الطبري عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: (الأبّ): ما أنبتت الأرض مما لا يأكل الناس. وعنه: (الأبّ): ما أنبتت الأرض للأنعام، و(الأبّ): الكلأ، والمرعى كله. وقيل: (الأبّ): النبات. وعن مجاهد: (الأبّ): المرعى. وعن الحسن، ومجاهد، وقتادة: (الأبّ): ما تأكل الأنعام، والعشب. وعن الضحاك، وابن زيد: المرعى. وقال آخرون: (الأبّ): الثمار الرطبة . ينظر تفسير الطبري: ٢٣٠/٢٤ وما بعدها. **قلت**: وهذه الأقوال المأثورة دليل على أن الكلمة معروفة الدلالة، مأنوسة الاستعمال عند العرب.

[٢] العدة في أصول الفقه، للقاضي أبي يعلي، محمد بن الفراء: ٣ / ٧٠٧ – ٧١٠ بتصرف.

يؤكد هذا قول الإمام الشافعي: " ولسان العرب: أوسع الألسنة مذهبًا، وأكثرها ألفاظًا، ولا نعلمه يحيط بجميع علمه إنسان غيرُ نبي، ولكنه لا يذهب منه شيء على عامتها؛ حتى لا يكون موجودًا فيها مَنْ يعرفه " [١].

وجاء في (قواطع الأدلة): " وقد قال بعضهم: إن القرآن يشتمل على ما ليس من لسان العرب، **وهذا ليس بشئ؛** لأن الله تعالى قال: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف:٢]. وهذا يدل على أن كل القرآن عربى، وأنه ليس فيه شيء من غير لسان العرب، و-أيضا- لو كان فيه من غير لسان العرب؛ لاختل أمر التحدي، ولم يثبت الإعجاز؛ لأنه يكون طريقا لهم في أن يقولوا: إن القرآن الذى جاء به يشتمل على لسان العرب، وغير لسان العرب، ونحن لا نعرف إلا لسان العرب؛ فيؤدي هذا القول إلى نفي أمر الإعجاز. وأما الألفاظ التي يذكرون: أنها وردت في القرآن ليست من لغة العرب، وسموا ذلك في مواضع؛ **فاعلم أنها من لسان العرب، ولا نقول: إنها ليست من لسانهم،** لكن يجوز أن يقع موافقة بين لغة ولغة، وكلمات معدودة، وهذا غير مستنكر، ولا مستبدع، وإذا ثبت ما ذكرناه: أن الشريعة عربية؛ فينبغي للمجتهد أن يعلم من لغة العرب ما يحتاج إليه، ويعرف طريق استعمالهم، ووجوه مخارج كلامهم من مثلها " [٢].

وقال الإمام الآمدي: " اختلفوا في اشتمال القرآن على كلمة غير عربية؛ فأثبته ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، وعكرمة، ونفاه الباقون. واحتج النافون بقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ

---

[١] الرسالة: صـ ٣٤ .

[٢] قواطع الأدلة: ١ / ٢٨٠ وما بعدها بتصرف.

وَعَرَبِيٌّ ﴾ [فصلت: ٤٤]. فنفى أن يكون أعجميا، وقطع اعتراضهم بتنوعه بين أعجمي وعربي، ولا ينتفي الاعتراض وفيه أعجمي، وبقوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف:٢]. وظاهر ذلك ينافي أن يكون فيه ما ليس بعربي. **واحتج المثبتون لذلك بقولهم:** القرآن مشتمل على ما ليس عربيا، مثل: (الأب)، وهي كلمة لا تعرفها العرب. **قالوا:** ولأن النبي ﷺ مبعوث إلى أهل كل لسان كافة على ما قال تَعَالَىٰ:﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ ﴾ [سبأ: ٢٨]، وقال ﷺ : " بعثت إلى الأحمر والأسود " [١]. فلا ينكر أن يكون كتابه جامعا للغة الكل; ليتحقق خطابه للكل: إعجازا، وبيانا. و– أيضا – إن النبي ﷺ لم يدع: أنه كلامه، بل كلام الله تعالى رب العالمين، المحيط بجميع اللغات؛ فلا يكون تكلمه باللغات المختلفة منكرا، **غايته:** أنه لا يكون مفهوما للعرب، وليس ذلك بدعا؛ بدليل تضمنه للآيات المتشابهات، والحروف المعجمة في أوائل السور[٢]. **أجاب النافون، وقالوا:**

---

[١] جزء من حديث أخرجه الإمام أحمد: مسند المكثرين من الصحابة رضي الله تعالى عنهم، مسند جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنهما، برقم (.١٤٢٦٤). قال المحقق: "إسناده صحيح على شرط الشيخين " . مسند الإمام أحمد، (تحقيق: شعيب الأرناؤوط، وآخرين): ٢٢ / ١٦٥.

[٢] **والصواب فيها:** أنها معلومة الدلالة؛ فهي أسماء للحروف، ولو كانت مجهولة؛ لاختلت الفصاحة؛ إذ إن من شروطها: أن لا تكون الكلمة غريبة، بل مأنوسة الاستعمال، مما يطعن في البلاغة، ويسقط الإعجاز. وهذا ما قرره فضيلة الأستاذ الدكتور/ إبراهيم عبد الرحمن خليفة – رحمه الله تعالى، وأسكنه فسيح جناته–، أستاذ ورئيس قسم التفسير وعلوم القرآن، بكلية أصول الدين والدعوة بـ(القاهرة)، في محاضرة له.

أما الكلمات المذكورة: فلا نسلم أنها ليست عربية، **وغايته:** اشتراك اللغات المختلفة في بعض الكلمات، وهو غير ممتنع، فإنه قد قيل: إنه مما اتفق فيه جميع اللغات، ولا يلزم من خفاء كلمة (الأب) على عمر رضي الله تعالى عنه [1]، أن لا يكون عربيا; إذ ليس كل كلمات العربية مما أحاط بها كل واحد من آحاد العرب. **وأما بعثته إلى الكل:** فلا يوجب ذلك اشتمال الكتاب على غير لغة العرب؛ لما ذكروه، وإلا لزم اشتماله على جميع اللغات، ولما جاز الاقتصار من كل لغة على كلمة واحدة؛ لتعذر البيان، والإعجاز بها، وما ذكروه **فغايته:** أنه إذا كان كلام الله تعالى المحيط بجميع اللغات؛ فلا يمتنع أن يكون مشتملا على اللغات المختلفة، ولكنه لا يوجبه؛ فلا يقع ذلك في مقابلة النصوص الدالة على عدمه " [2].

وفي هذا الصدد قال الإمام الشاطبي: " وأما كونه جاءت فيه ألفاظ من ألفاظ العجم، أو لم يجئ فيه شيء من ذلك، فلا يحتاج إليه؛ إذا كانت العرب قد تكلمت به، وجرى في خطابها، وفهمت معناه، فإن العرب إذا تكلمت به؛ صار من كلامها، ألا ترى أنها لا تدعه على لفظه الذي كان

---

[1] أخرج الإمام الطبري عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول: " قال الله تَعَالَىٰ: ﴿وَعِنَبًا وَقَضْبًا. وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا. وَحَدَآئِقَ غُلْبًا. وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾ [عبس: ٢٨-٣١]، كل هذا قد علمناه، فما (الأبّ)؟ ثم ضرب بيده، ثم قال: لعمرك إن هذا لهو التكلف، واتبعوا ما يتبين لكم في هذا الكتاب، قال عمر رضي الله تعالى عنه: وما يتبين فعليكم به، وما لا فدعوه " . تفسير الطبري: ٢٤ / ٢٣١.

[2] الإحكام في أصول الأحكام، للآمدي: ١ / ٥٠ وما بعدها بتصرف.

عليه عند العجم، إلا إذا كانت حروفه في المخارج والصفات كحروف العرب، وهذا يقل وجوده، وعند ذلك يكون منسوبا إلى العرب " [١].

وقال الإمام الألوسي: " واستدل جماعة منهم: الشافعي رضي الله تعالى عنه، وأبو عبيدة بوصف القرآن بكونه عربيا، على أنه لا يوجد فيه شيء غير عربي، وشدد الشافعي على مَنْ زعم: وقوع ذلك فيه، وكذا أبو عبيدة؛ فإنه قال: مَنْ زعم: أن فيه غير العربية؛ فقد أعظم القول. ووُجِّه ما ورد في تفسير ألفاظ منه: أنها بالفارسية، أو الحبشية، أو النبطية: بأن ذلك مما اتفق فيه توارد اللغات، وقيل: بل كان للعرب التي نزل القرآن بلغتهم بعض مخالطة لأهل سائر الألسنة في أسفار لهم؛ فعلقت من لغاتهم ألفاظ غيرت بعضها؛ بالنقص من حروفها، واستعملتها في أشعارها، ومحاورتها؛ حتى جرت مجرى العربي الفصيح، ووقع بها البيان، وعلى هذا الحد نزل بها القرآن" [٢].

قلت: ومن ثَمَّ فقد تقرر بما لا غاية وراءه: أن القرآن الكريم عربي، وأجيب على المخالف **بالقرآن** نفسه؛ إذ وصف بكونه عربيا، **وبالعقل**؛ إذ إن اشتماله على غير العربي مخل بأمر التحدي، طاعن في إثبات الإعجاز، **وبأن** الله تعالى نفى أن يكون أعجميا، وقطع اعتراضهم بتنوعه بين أعجمي وعربي، **وبأنه** قد أضيف البيان إليهم، ولا يعقل ذلك إلا إذا كان كله عربيا؛ ومن ثَمَّ وصف قول مَنْ قال: إن في القرآن غير عربي، بكونه ليس بشيء.

---

[١] الموافقات، للشاطبي: ٢ / ١٠٢.

[٢] روح المعاني: ٦ / ٣٦٦ بتصرف.

واحتج المثبتون بعموم بعثته، ووجود غير العربي فيه، وقد تبين الرد عليهم بما يبطل زعمهم، ويقطع استدلالهم، ويقيم الحجة عليهم.

تذييل

تمهد مما سبق أن أسرار وصف عربي في النظم القرآني إنما تتجلى من طبيعة المفردة نفسها، وفي ضوء حقيقتها اللغوية، واستعمالاتها العربية، التي نطقت ابتداء بما في مطاويها، وأعلنت أسرارها، وحيثيات إيثار التعبير بها.

كما تبين في ضوء تحليل المفردة (عربي) أن الاسم قد دل على مسماه بما لا غاية وراءه، وتقرر: أن السادة المفسرين إنما ذكروا تلك الأسرار لذاك الوصف، دون تسليط الضوء على دلالته اللغوية، أو استحضار استعمالاته العربية – إلا نادرا –، فهم إما استحضروه ذهنا، وراحوا يفعلون دلالته في سياقات وروده المتعددة، ويتوسعون في توظيفها، أو أنهم التمسوا تلك الأسرار، والنكات من حيثيات عقلية، وبديهيات منطقية، ترجع إلى طبيعة اللغة نفسها، كما ترجع إلى خصائص أهلها.

ومما تجدر الإشارة إليه: أن كل ما قالوه ملتمسين سر التعبير بوصف العربية في النظم، إنما يعتبر في كل سياق ورد فيه ذلك الوصف، وأن اقتصارهم على بعض الأسرار في سياق دون آخر، لا ينفي تفعيل كل الأسرار في كل سياق انطوى عليه؛ إذ قد تقرر: أن كل مفردة قرآنية إنما يتم إيثارها؛ لمعان حملتها، ودلالات استقلت بها، وإشارات ابتعثتها، وإيحاءات أوردتها... إلخ، مما يؤكد مدى استحكامها في نظمها، ويعلن: استحالة الاستغناء عنها، ويفصح بعجز أي مفردة أخرى من القيام بدورها؛ فتتجلى حيثية تمكنها، وسمو نظمها، ووجه إعجازها!

ومن هذا المنطلق فقد سارت تلك الدراسة على ضوابط التعامل مع المفردة القرآنية، وبرهنت على ضرورة الاعتماد عليها، والانطلاق من خلالها في دراسة عناصر النظم؛ إذ بها يتم الكشف عن إعجاز المفردة في نظمها، وفي ظلالها تنفى تماما إمكانية الاستغناء عنها، واحتمالية استبدالها.

وعليه لا يمكن أن تفسر كلمة قرآنية بأخرى على أنها هي هي، وإنما يفعل ذلك من باب تقريب المعنى، وتوضيحه.

هذا: وقد تبين في ثنايا تلك الدراسة أن مجال البحث في المفردة القرآنية مازال خصبا، مفتوحا على مصرعيه، لمَنْ أراد أن يتشرف بولوج ساحته، وينهل من محيط فيضه، وسيول أسراره.

الخاتمة

الحمد لله جل جلاله، الملك السلام، المهيمن العلام، الذي أنزل بفضله كتابا تبيانه ساطعا، وبرهانه قاطعا، عجزت الخلائق عن معارضته، وعن الإتيان بسورة من مثله في مقابلته؛ فهو كلام معجز في رقائق منطوقة، ودقائق مفهومة، لا نهاية لأسرار علومه، ولا غاية بعد فهم فنونه.

والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ﷺ، وإمام المتقين، ورسول رب العالمين ﷻ، الذي أشرق في سماء النبوة بدرا، وأشرف على بساط الرسالة صدرا، صلى الله تعالى عليه، وعلى آله، وأصحابه ﷺ، النجوم المشرقة بمطالع أنوار الهدى، والرجوم المحرقة لشياطين الردى، صلاةً وسلاما دائمين، متلازمين؛ ما تناوبت الأنواء، وتعاقبت الظلم والأضواء، وعلى مَنْ تبعهم بإحسان مدى الدهور، والأزمان.

أما بعـــــــد،

فقد وفقني الله ﷻ في إخراج هذا البحث، ويسر لي السبل فطوفت بين دواوين العلم على اختلاف أسمائها، وتنوع علومها، وتشابك فنونها، وتباين عصورها، أمعن فيها النظر، وألتقط منها الدرر، ثم أرتبها، وأنسجها؛ لتكشف عن تركيب نفيس يأخذ بألباب البشر، وقد بذلت في ذلك قصارى جهدي، ولم أدخر وسعا في سبيل إخراجه على أحسن صورة، فإن كنت أحسنت؛ فمن الله تعالى، وإن كانت الأخرى؛ فمن نفسي الضعيفة، وحسبي شرف المحاولة، وعلى الله سبحانه قصد السبيل .

هذا: ويمكن بعد حمد الله جل جلاله، وتوفيقه، إيجاز أهم نتائج البحث، وأهدافه في النقاط التالية:

١. **عرض** البحث لأوجه إعجاز القرآن الكريم إجمالا، واعتنى أيما عناية

بالإعجاز البياني، مدللا عليه ببيان أحد أهم أفراد منظومته البلاغية الراقية، آلا وهو وصف (عربي)، وأثره في النظم القرآني.

٢. **تناول** البحث بالتحليل مادة (ع ر ب)، وبين أن لها مدلولات كثيرة، كلها مرادة، ومستخدمة في الدلالة على حقيقة المفردة، والإعراب عن خصائصها، والإفصاح عن أسرارها، كلبنة من لبنات القرآن الكريم الراقية، بل هي الأنسب في الدلالة عليها، والأظهر في إثبات بلاغتها.

٣. **قعدت** الدراسة لدراسة عناصر النظم، بمجموعة من القواعد، من شأنها: الكشف عن وجه الإعجاز البياني، وإثبات سمو النظم القرآني.

٤. **انطلقت** تلك الدراسة من منطلق: أنه لا سبيل لفهم القرآن الكريم إلا من خلال لغته التي نزل بها؛ فهي مفتاح التعامل معه، وسبيل الوقوف على إعجازه؛ بها يتأتى الكشف عن سر إيثار المفردة في سياقها، ويتقرر: وجه تمكنها في نظمها، ومن خلالها تعلن: أسباب ورودها.

٥. **خلصت** الدراسة إلى أن أسباب اختيار المفردة ترجع في مجملها إلى: سعة معناها، وعمق دلالتها، وثراء استعمالاتها، وفيض مكنوناتها، وكثرة إيحاءاتها، وتعدد إشاراتها، وظلال مطاويها... وغير ذلك من حيثيات كلها من مقتضيات الحال، ومستدعيات المقام، قد توفرت لها دون غيرها مما هو قريب منها في بابها. فجعلتها فارسة تجول في ساحة النظم، بسيف الحجة، والبرهان، تجادل بفصيح القول، وبليغ الكلام؛ فيتأكد بليغ إعجازها البياني، ويتقرر: إلهية نظمها القرآني.

٦. **أكد** البحث الصلة الوشيجة، والمعاني العميقة، والاتساق الكامل بين ورود وصف (عربي)، وبين سياقاته، معتمدا في بيان ذلك على أقوال السادة

المفسرين، والعلماء مع ترتيبها، وتوجيهها توجيهًا علميًا رصينًا، وكذا ما أدى إليه اجتهاد الباحثة.

٧. **كشف** البحث عن تناغم وصف (عربي) مع السياق تناغما بديعا معجزًا؛ حيث أثبت أن هذه المفردة بمثابة الدرة من العقد، أو القلب من الجسد؛ فاتسقت مع عناصرها: سباقًا ولحاقًا؛ مما يؤكد الإعجاز البياني، ويقرر: إثبات التحدي القرآني!

٨. **عمق** البحث أهمية المفردة القرآنية، فظهر من خلال تحليل وصف (عربي): أن جميع مدلولاتها مرادة، وجُلَّ استعمالاتها متعينة، ولا يمكن الاستعاضة عنها بغيرها من: الأبنية، أو الاشتقاقات، كما لا يتأتى – بحال – حذفها؛ مما يتقرر في ضوئه: الإعجاز البياني، ويتأكد في ظله مدى سمو النظم القرآني!

٩. **كشف** البحث عن خصائص المفردة القرآنية في سياقاتها المتنوعة، التي لا يشاركها فيها أي مفردة أخرى في أي تركيب آخر؛ فهي واقعية، صادقة، موحية، معبرة، فصيحة، بليغة، ثرية الدلالات، مثمرة للمعاني، والإيحاءات، فياضة بالإشارات، جامعة لها، مع الإيجاز المحكم، والإعجاز المحقق.

١٠. **أسهم** البحث في التأكيد على مدى تمكن المفردة في النظم، وإثبات إحكامها في النسج، مقررا: أسباب ذلك، متمثلة في معنى انطوت عليه، ودلالة استقلت بها، واستعمال تحققت به دون سواها مما هو قريب منها.

١١. **أثبتت** الدراسة: أن اللغة العربية اصطفاها الله سبحانه وتعالى؛

لتكون لغة التنزيل؛ لما توفر لها من الخصائص، والسمات، ما لم يتحقق لسواها من اللغات.

١٢. **أفصح** البحث عن أسرار وصف (عربي) في سياقاته المختلفة، مبينا بالغ العلاقة بين حقيقته اللغوية، ومبنى أسراره السياقية.

هذا: ويعد البحث – من خلال دراسة هذا النعت بخصوصه – دليلا قاطعا على أن القرآن الكريم معجزٌ: أسلوبا، ونظمًا، ذكرًا، وحذفًا، وأن إعجازه باقٍ إلى قيام الساعة.

اللهم ذكرنا منه ما نسينا، وعلمنا منه ما جهلنا، وارزقنا تلاوته آناء الليل، وأطراف النهار على الوجه الذي يرضيك عنا يا أرحم الراحمين.

أبرز التوصيات

بعد معايشتي لهذا البحث والذي أسأل الله ﷻ أن يتقبله، وأن ينفعني به، وينفع قارئه، وكاتبه، وكل من أسهم في إخراجه، أو قدم لي فيه نصحا أو توجيها، وأن يمن علينا من فضله؛ فيعلمنا ما ينفعنا، وينفعنا بما علمنا – أوصي نفسي وإخواني وأخواتي بما يلي:

أولًا: تقوى الله تعالى لاسيما بر الوالدين، والتذرع بالإخلاص، والصدق، والأمانة، والمثابرة، مع الجد والاجتهاد، وبذل كل ما هو نفيس في سبيل العلم والتعلم.

ثانيًا: الحرص على تناول الموضوعات التي تتسم بعموم النفع، والجدية، مع الأصالة، ومواكبة التطور الفكري للأجيال المتلاحقة.

ثالثًا: تجنب تكرار عمل السابقين والاقتصار على جمع أقوالهم، ونقلها، والحرص على الابتكار، ومعالجة جوانب جديدة تخدم القرآن الكريم، وتبرز إعجازه، وتستفيد وتفيد من عطاءاته المستمرة.

رابعًا: التزام الموضوعية وعدم التعصب لعالم، أو رأي، أو مذهب؛ فإن ذلك مما يزعزع الثقة في الباحث، ويقلل من قيمة بحثه، ويقلص وجه النفع به.

خامسًا: توجيه أنظار الباحثين إلى دراسة الموضوعات المكملة لمنظومة الدراسات التحليلية، والموضوعية، والتطبيقية، والتي تبرز عظمة المفردة، أو الأسلوب، أو الموضوع القرآني، ويمكن اختصارها في ثلاثة محاور.

أولا: الدراســـــات التحليليـــــة:

١. الكلمات غير العربية في القرآن الكريم (جمعا، ودراسة).

٢. أوصاف القرآن، وأثرها في النظم.

٣. بلاغة الوصف في التعبير القرآني.

٤. الامتنان في القرآن الكريم (مظاهره، وأسراره).

٥. صلاحية الفعل القرآني للتعدي واللزوم، وأثره في النظم.

٦. حذف متعلق الفعل في الفاصلة القرآنية.

٧. الفاصلة القرآنية، ودورها في تثبيت المعاني.

٨. أثر السياق في إيثار المفردة القرآنية.

٩. مظاهر تمكن المفردة القرآنية في النظم.

١٠. خصائص المفردة القرآنية.

١١. الإيجاز المطنب في القرآن الكريم.

١٢. حذف متعلقات الفعل، وأثره في النظم.

١٣. أثر المفردة القرآنية في إثبات الوحدة الموضوعية في النظم.

١٤. التمكين، ووجه نظمه في القرآن الكريم.

١٥. الدلالة اللغوية للمفردة، وأثرها في إثراء المعاني.

ثانيا: الدراســـات الموضـوعيـــــة:

١. وظيفة المفردة القرآنية في الكشف عن صفات المشركين، والمنافقين، والرد عليهم.

٢. الاصطفاء الإلهي... صوره، ودواعيه.

٣. المفردة القرآنية، ودورها في سياق وعيد الكفار والمنافقين.

٤. النعي على المشركين، والتعريض بهم.

٥. التنديد بالمنافقين، وتوبيخهم.

٦. التحذير من كتمان الحق.

٧. بيان سوء مغبة الكفر.

٨. النور في القرآن الكريم.

٩. الظلام في القرآن الكريم.

ثالثا: الدراســـات التطبيقية:

١. دلالة الاسم على مسماه في القرآن الكريم.

٢. الإعجاز الصوتي في المفردة القرآنية.

٣. الأصول اللغوية للمفردة القرآنية، وأثرها في التوسع في المعنى.

٤. المقطع الصوتي في المفردة القرآنية، وأثره في إيضاح الدلالة.

٥. الاختلاف في اشتقاق المفردة القرآنية، وأثره في النظم.

٦. تقليبات الجذر اللغوي للمفردة القرآنية، وأثره في النظم.

وبعد عرض أهم نتائج البحث، وأبرز توصياته أسأل الله عز وجَلَّ أن يرزقنا الإخلاص في القول والعمل، ويجنبنا الزلل، ويعصمنا من الفتن، ما ظهر منها وما بطن. وصل اللهم على سيدنا محمد، وعلى آله، وصحبه، وسلم تسليما كثيرا.

وآخر دعوانا : أن الحمد لله رب العالمين

فهرس المصادر والمراجع [1]

القرآن الكريم.

١. الإتقان في علوم القرآن- المؤلف: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى:٩١١هـ)-، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة: ١٣٩٤هـ-١٩٧٤م.

٢. الإحكام في أصول الأحكام- المؤلف: أبو الحسن سيد الدين علي بن أبي علي بن محمد بن سالم الثعلبي الآمدي (المتوفى: ٦٣١هـ)-، المحقق: عبد الرزاق عفيفي، الناشر: المكتب الإسلامي، بيروت- دمشق- لبنان.

٣. أسلوب الاحتباك في القرآن الكريم "دراسة تفسيرية تحليلية" ، رسالة قدمت؛ لنيل درجة التخصص (الماجستير) في التفسير وعلوم القرآن، كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بـ(القاهرة)، جامعة الأزهر- للباحثة/ أمل محمد عبد الفراج علي راشد- المعيدة بقسم التفسير وعلوم القرآن، بجامعة الأزهر، بإشراف: أ.د/محمد عبد المنعم خريبة، أستاذ التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر، و د/فتحية أحمد رشوان، مدرس التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر.

[1] وهي مرتبة ترتيب ألفبائي، بعد تقديم القرآن الكريم؛ لشرفه، ولكونه أساس العلوم، ومعتمدها.

٤. الأسلوب- المؤلف: أحمد الشايب-، الناشر: مكتبة النهضة المصرية، الطبعة: الثانية عشرة، ٢٠٠٣م.

٥. إعجاز القرآن- المؤلف: أبو بكر الباقلاني محمد بن الطيب-، المحقق: السيد أحمد صقر، الناشر: دار المعارف- (مصر)، الطبعة الخامسة، ١٩٩٧م.

٦. إعجاز القرآن والبلاغة النبوية- المؤلف: مصطفى صادق بن عبد الرزاق بن سعيد بن أحمد بن عبد القادر الرافعي (المتوفى:١٣٥٦هـ)-، الناشر: دار الكتاب العربي- (بيروت)، الطبعة: الثامنة، ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٥م.

٧. ألفية ابن مالك- المؤلف: محمد بن عبد الله بن مالك الطائي الجياني، أبو عبد الله، جمال الدين (المتوفى: ٦٧٢هـ)-، الناشر: دار التعاون.

٨. الإيضاح في علوم البلاغة- المؤلف: محمد بن عبد الرحمن بن عمر، أبو المعالي، جلال الدين القزويني الشافعي، المعروف بخطيب دمشق (المتوفى:٧٣٩هـ)-، المحقق: محمد عبد المنعم خفاجي ، الناشر: دار الجيل- (بيروت)، الطبعة: الثالثة.

٩. البرهان في علوم القرآن- المؤلف: أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي (المتوفى:٧٩٤هـ)-، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه، الطبعة: الأولى، ١٣٧٦هـ- ١٩٥٧م.

١٠. بيان المعاني - المؤلف: عبد القادر بن ملّا حويش السيد محمود آل غازي العاني (المتوفى: ١٣٩٨هـ)-، الناشر: مطبعة الترقي -

(دمشق)، الطبعة: الأولى، ١٣٨٢ هـ - ١٩٦٥م.

١١. البيان في إعجاز القرآن- المؤلف: أ.د/ صلاح عبد الفتاح الخالدي-، الناشر: دار عمار للنشر، والتوزيع، الطبعة: الخامسة، ١٤٢٩هـ- ٢٠٠٨م.

١٢. تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن- المؤلف: عبد العظيم بن الواحد بن ظافر بن أبي الإصبع العدواني، البغدادي، ثم المصري (المتوفى:٦٥٤هـ)-، تقديم، وتحقيق: د/ حفني محمد شرف، الناشر: الجمهورية العربية المتحدة، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي.

١٣. تفسير ابن عطية= المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز- المؤلف: أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (المتوفى:٥٤٢هـ)-، المحقق: عبد السلام عبد الشافي محمد، الناشر: دار الكتب العلمية- (بيروت)، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

١٤. تفسير أبي السعود= إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم- المؤلف: أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى (المتوفى: ٩٨٢هـ)-، الناشر: دار إحياء التراث العربي- (بيروت).

١٥. تفسير أبي الطيب محمد صديق خان= فتحُ البيان في مقاصد القرآن- المؤلف: أبو الطيب محمد صديق خان بن حسن بن علي بن لطف الله الحسيني البخاري القِنَّوجي (المتوفى: ١٣٠٧هـ)-، عني بطبعه، وقدّم له، وراجعه: خادم العلم عَبد الله بن إبراهيم الأنصَاري،

الناشر: المَكتبة العصريَّة للطبَاعة والنّشْر، (صيدا) – (بَيروت)، عام النشر: ١٤١٢هـ- ١٩٩٢م.

١٦. تفسير أبي حيان= البحر المحيط في التفسير- المؤلف: أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (المتوفى: ٧٤٥هـ)-، المحقق: صدقي محمد جميل، الناشر: دار الفكر- (بيروت)، الطبعة: ١٤٢٠هـ.

١٧. تفسير أبي زهرة= زهرة التفاسير- المؤلف: محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة (المتوفى:١٣٩٤هـ)-، دار النشر: دار الفكر العربي.

١٨. تفسير إسماعيل حقي= روح البيان- المؤلف: إسماعيل حقي بن مصطفى الاستانبولي الحنفي الخلوتي , المولى أبو الفداء (المتوفى: ١١٢٧هـ)-، الناشر: دار الفكر – (بيروت).

١٩. تفسير الألوسي= روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني- المؤلف: شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (المتوفى: ١٢٧٠هـ)-، المحقق: علي عبد الباري عطية، الناشر: دار الكتب العلمية- (بيروت)، الطبعة: الأولى، ١٤١٥هـ.

٢٠. تفسير الإيجي= جامع البيان في تفسير القرآن- المؤلف: محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الحسني الحسيني الإيجي الشافعيّ (المتوفى: ٩٠٥هـ)-، دار النشر: دار الكتب العلمية – (بيروت)، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م.

٢١. تفسير البغوي= معالم التنزيل في تفسير القرآن- المؤلف: محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي (المتوفى: ٥١٠هـ)-، المحقق : عبد الرزاق المهدي، الناشر : دار إحياء التراث العربي- (بيروت)، الطبعة : الأولى، ١٤٢٠هـ.

٢٢. تفسير البيضاوي= أنوار التنزيل وأسرار التأويل- المؤلف: ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر ابن محمد الشيرازي البيضاوي (المتوفى: ٦٨٥هـ)-، المحقق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، الناشر: دار إحياء التراث العربي – (بيروت)، الطبعة: الأولى: ١٤١٨هـ.

٢٣. تفسير الخازن= لباب التأويل في معاني التنزيل- المؤلف: علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم ابن عمر الشيحي أبو الحسن، المعروف بالخازن (المتوفى: ٧٤١هـ)-، المحقق: تصحيح محمد علي شاهين، الناشر: دار الكتب العلمية- (بيروت)، الطبعة: الأولى: ١٤١٥هـ.

٢٤. تفسير الرازي= مفاتيح الغيب= التفسير الكبير- المؤلف: أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن ابن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفى: ٦٠٦هـ)-، الناشر: دار إحياء التراث العربي- (بيروت)، الطبعة: الثالثة، ١٤٢٠هـ.

٢٥. تفسير الراغب- المؤلف: أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى (المتوفى:٥٠٢هـ)-، وقد حقق في عدة رسائل علمية: جزء (١): المقدمة، وتفسير [الفاتحة]، و[البقرة]، تحقيق، ودراسة: د/ محمد عبد العزيز بسيوني، الناشر: كلية الآداب- جامعة طنطا، الطبعة الأولى: ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م. جزء (٢، ٣): من أول

سورة [آل عمران]- وحتى الآية ١١٣ من سورة [النساء]، تحقيق، ودراسة: د/ عادل بن علي الشِّدِي، دار النشر: دار الوطن- الرياض، الطبعة الأولى: ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م. جزء (٤، ٥): من الآية ١١٤ من سورة [النساء]- وحتى آخر سورة [المائدة]، تحقيق، ودراسة: د/ هند بنت محمد بن زاهد سردار، الناشر: كلية الدعوة وأصول الدين - جامعة أم القرى، الطبعة الأولى: ١٤٢٢هـ- ٢٠٠١م.

٢٦. تفسير الزمخشري= الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل- المؤلف: أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى: ٥٣٨هـ)-، الناشر: دار الكتاب العربي- (بيروت)، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٧هـ.

٢٧. تفسير الشعراوي= الخواطر- المؤلف: الشيخ/ محمد أمين متولي الشعراوي (المتوفى:١٤١٨هـ)-، الناشر: مطابع أخبار اليوم.

٢٨. تفسير الشوكاني= فتح القدير- المؤلف: محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (المتوفى: ١٢٥٠هـ)-، الناشر: دار ابن كثير، دار الكلم الطيب - (دمشق)- (بيروت)، الطبعة: الأولى، ١٤١٤هـ.

٢٩. تفسير بن عاشور= التحرير والتنوير، وهو اختصار: (تحرير المعنى السديد، وتنوير العقل الجديد، من تفسير الكتاب المجيد)- المؤلف : محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى : ١٣٩٣هـ)-، الناشر : الدار التونسية للنشر - (تونس)، سنة النشر: ١٩٨٤هـ.

٣٠. تفسير الطبري= جامع البيان عن تأويل آي القرآن- المؤلف: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى:٣١٠هـ)-، المحقق: أحمد محمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ- ٢٠٠٠م.

٣١. تفسير القاسمي= محاسن التأويل- المؤلف: محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي (المتوفى:١٣٣٢هـ)-، المحقق: محمد باسل عيون السود، الناشر: دار الكتب العلمية - (بيروت)، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ.

٣٢. التفسير القرآني للقرآن- المؤلف: عبد الكريم يونس الخطيب (المتوفى: بعد ١٣٩٠هـ)-، الناشر: دار الفكر العربي- (القاهرة).

٣٣. تفسير القرطبي= الجامع لأحكام القرآن- المؤلف: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى: ٦٧١هـ)-، تحقيق: أحمد البردوني، وإبراهيم أطفيش، الناشر: دار الكتب المصرية - (القاهرة)، الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ- ١٩٦٤م.

٣٤. تفسير الماتريدي= تأويلات أهل السنة- المؤلف: محمد بن محمد بن محمود، أبو منصور الماتريدي (المتوفى: ٣٣٣هـ)-، المحقق: د/ مجدي باسلوم، الناشر: دار الكتب العلمية، (بيروت)- (لبنان)، الطبعة: الأولى، ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م.

٣٥. تفسير المراغي- المؤلف: أحمد بن مصطفى المراغي (المتوفى: ١٣٧١هـ)-، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده بـ(مصر)، الطبعة: الأولى، ١٣٦٥هـ- ١٩٤٦م.

٣٦. تفسير المنار= تفسير القرآن الحكيم- المؤلف: محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين ابن محمد بهاء الدين بن منلا علي خليفة القلموني الحسيني (المتوفى: ١٣٥٤هـ)-، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة النشر: ١٩٩٠م.

٣٧. تفسير النسفي= مدارك التنزيل وحقائق التأويل- المؤلف: أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين النسفي (المتوفى: ٧١٠هـ)-، حققه، وخرج أحاديثه: يوسف علي بديوي، راجعه، وقدم له: محيي الدين ديب مستو، الناشر: دار الكلم الطيب، (بيروت)، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م.

٣٨. تهذيب اللغة- المؤلف: محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور (المتوفى: ٣٧٠هـ)-، المحقق: محمد عوض مرعب، الناشر: دار إحياء التراث العربي- (بيروت)، الطبعة: الأولى، ٢٠٠١م.

٣٩. الجملة العربية والمعنى- المؤلف: أ.د/ فاضل صالح السامرائي، أستاذ النحو بكلية الآداب، بجامعة (بغداد)-، الناشر: دار الفكر، الطبعة: الثالثة، ١٤٣٤هـ-٢٠١٣م.

٤٠. حاشية القونوي- المؤلف: عصام الدين إسماعيل بن محمد الحنفي (المتوفى: ١١٩٥هـ)، على تفسير الإمام البيضاوي-، ضبطه، وصححه، وخرج آياته: عبد الله محمود محمد عمر، الناشر: دار الكتب

العلمية، (بيروت)- (لبنان)، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

٤١. الحيوان- المؤلف: عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ (المتوفى: ٢٥٥هـ)-، الناشر: دار الكتب العلمية – (بيروت)، الطبعة: الثانية، ١٤٢٤هـ.

٤٢. خاص الخاص- المؤلف: عبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور الثعالبي (المتوفى:٤٢٩هـ)-، المحقق: حسن الأمين، الناشر: دار مكتبة الحياة: (بيروت)- (لبنان).

٤٣. خزانة الأدب وغاية الأرب- المؤلف : ابن حجة الحموي، تقي الدين أبو بكر بن علي بن عبد الله الحموي (المتوفى:٨٣٧هـ)-، المحقق: عصام شقيو، الناشر: دار ومكتبة الهلال- (بيروت)، دار البحار- (بيروت)، الطبعة: الأخيرة، ٢٠٠٤م.

٤٤. دلائل الإعجاز في علم المعاني- المؤلف: أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي الأصل، الجرجاني الدار (المتوفى:٤٧١هـ)-، المحقق: محمود محمد شاكر أبو فهر، الناشر: مطبعة المدني بـ(القاهرة)- دار المدني بـ(جدة)، الطبعة: الثالثة، ١٤١هـ- ١٩٩٢م.

٤٥. الرسالة- المؤلف: الشافعي أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن عبد المطلب بن عبد مناف المطلبي القرشي المكي (المتوفى:٢٠٤هـ)-، المحقق: العلامة/ أحمد شاكر، الناشر: مكتبه الحلبي، (مصر)، الطبعة: الأولى، ١٣٥٨هـ-١٩٤٠م.

٤٦. الرسائل الأدبية- المؤلف: عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ (المتوفى: ٢٥٥هـ)-، الناشر: دار ومكتبة الهلال، (بيروت)، الطبعة: الثانية، ١٤٢٣هـ.

٤٧. شرح الأشموني على ألفية ابن مالك- المؤلف: علي بن محمد بن عيسى، أبو الحسن، نور الدين الأُشْمُوني الشافعي (المتوفى: ٩٠٠هـ)-، الناشر: دار الكتب العلمية، (بيروت)- (لبنان)، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م.

٤٨. الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها- المؤلف: أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفى: ٣٩٥هـ)-، الناشر: محمد علي بيضون، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م.

٤٩. الصداقة والصديق- المؤلف: أبو حيان التوحيدي، علي بن محمد بن العباس (المتوفى: نحو ٤٠٠هـ)-، المحقق: د/ إبراهيم الكيلاني، الناشر: دار الفكر المعاصر، (بيروت – لبنان)، دار الفكر، (دمشق – سورية)، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م.

٥٠. العدة في أصول الفقه- المؤلف: القاضي أبو يعلى ، محمد بن الحسين بن محمد بن خلف بن الفراء (المتوفى : ٤٥٨هـ)-، حققه، وعلق عليه، وخرج نصه: د/ أحمد بن علي بن سير المباركي، الأستاذ المشارك في كلية الشريعة بالرياض- جامعة الملك محمد بن سعود الإسلامية، بدون ناشر، الطبعة: الثانية، ١٤١٠هـ- ١٩٩٠م.

٥١. العقد الفريد- المؤلف: أبو عمر، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه بن حبيب بن حدير بن سالم، المعروف بابن عبد ربه الأندلسي (المتوفى: ٣٢٨هـ)-، الناشر: دار الكتب العلمية، (بيروت)، الطبعة: الأولى، ١٤٠٤هـ.

٥٢. علوم القرآن الكريم- المؤلف: نور الدين محمد عتر الحلبي-، الناشر: مطبعة الصباح- (دمشق)، الطبعة: الأولى، ١٤١٤هـ- ١٩٩٣م.

٥٣. علوم القرآن- المؤلف: الدكتور/ عدنان زرزور-، المكتب الإسلامي.

٥٤. العين- المؤلف: أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري (المتوفى:١٧٠هـ)-، المحقق: د/ مهدي المخزومي، د/ إبراهيم السامرائي، الناشر: دار ومكتبة الهلال.

٥٥. الفاخر- المؤلف: المفضل بن سلمة بن عاصم، أبو طالب (المتوفى: نحو ٢٩٠هـ)-، تحقيق: عبد العليم الطحاوي، مراجعة: محمد علي النجار، الناشر: دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي، الطبعة: الأولى، ١٣٨٠ هـ.

٥٦. الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية الموضحة للكلم القرآنية والحكم الفرقانية- المؤلف: نعمة الله بن محمود النخجواني، ويعرف بالشيخ علوان (المتوفى: ٩٢٠هـ)-، الناشر: دار ركابي للنشر- (الغورية)- (مصر)، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ- ١٩٩٩م.

٥٧. قواطع الأدلة في الأصول- المؤلف: أبو المظفر، منصور بن محمد بن عبد الجبار بن أحمد المروزي السمعاني التميمي الحنفي ثم

الشافعي (المتوفى: ٤٨٩هـ)-، المحقق: محمد حسن محمد حسن إسماعيل الشافعي، الناشر: دار الكتب العلمية، (بيروت، لبنان)، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ-١٩٩٩م.

٥٨. الكليات= معجم في المصطلحات والفروق اللغوية- المؤلف: أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي، أبو البقاء الحنفي (المتوفى: ١٠٩٤هـ)-، المحقق: عدنان درويش، محمد المصري، الناشر: مؤسسة الرسالة - (بيروت).

٥٩. كليلة ودمنة- المؤلف: عبد الله بن المقفع (المتوفى: ١٤٢هـ)-، الناشر: المطبعة الأميرية بـ(بولاق- القاهرة)، ١٩٣٧، الطبعة: السابعة عشرة: ١٣٥٥هـ- ١٩٣٦م.

٦٠. مباحث في إعجاز القرآن- المؤلف: د/ مصطفى مسلم، الناشر: دار القلم- دمشق، الطبعة الثالثة، ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م:

٦١. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر- المؤلف: نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني، الجزري، أبو الفتح، ضياء الدين، المعروف بابن الأثير الكاتب (المتوفى: ٦٣٧هـ)-، المحقق: محمد محي الدين عبد الحميد، الناشر: المكتبة العصرية للطباعة والنشر - (بيروت)، عام النشر: ١٤٢٠هـ.

٦٢. مجاز القرآن- المؤلف: أبو عبيدة معمر بن المثنى التيمي البصري (المتوفى: ٢٠٩هـ)-، المحقق: محمد فواد سزگين-، الناشر: مكتبة الخانجي- (القاهرة)، الطبعة: ١٣٨١هـ.

٦٣. المجاز في اللغة والقرآن الكريم بين الإجازة والمنع ،

عرض...وتحليل...ونقد– المؤلف: أ.د/ عبد العظيم إبراهيم المطعني–، الناشر: مكتبة وهبة.

٦٤. مجمع الأمثال– المؤلف: أبو الفضل أحمد بن محمد بن إبراهيم الميداني النيسابوري (المتوفى:٥١٨هـ)–، المحقق: محمد محيى الدين عبد الحميد، الناشر: دار المعرفة– (بيروت، لبنان).

٦٥. مسند الإمام أحمد بن حنبل– المؤلف: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: ٢٤١هـ)–، المحقق: شعيب الأرناؤوط، عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د/عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ–٢٠٠١م.

٦٦. معاني النحو– المؤلف: أ.د/ فاضل صالح السامرائي، أستاذ النحو بكلية الآداب، بجامعة (بغداد)–، الناشر: دار الفكر– (عمان)، الطبعة: الخامسة، ١٤٣٢هـ–٢٠١١م.

٦٧. معترك الأقران في إعجاز القرآن= إعجاز القرآن ومعترك الأقران– المؤلف: عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي– الناشر: دار الكتب العلمية، (بيروت– لبنان)، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨هـ–١٩٨٨م.

٦٨. معجم الفروق اللغوية– المؤلف: أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (المتوفى: نحو ٣٩٥هـ)–، المحقق: الشيخ بيت الله بيات، ومؤسسة النشر الإسلامي، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي، التابعة لجماعة المدرسين بـ (قم)، الطبعة: الأولى، ١٤١٢هـ.

٦٩. معجم مقاييس اللغة- المؤلف: أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفى:٣٩٥هـ)-، المحقق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: دار الفكر، عام النشر: ١٣٩٩هـ- ١٩٧٩م.

٧٠. مفتاح العلوم- المؤلف: يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي السكاكي الخوارزمي الحنفي أبو يعقوب (المتوفى:٦٢٦هـ)-، ضبطه، وكتب هوامشه، وعلق عليه: نعيم زرزور، الناشر: دار الكتب العلمية، (بيروت – لبنان)، الطبعة: الثانية، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

٧١. المفردات في غريب القرآن- المؤلف: أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى (المتوفى:٥٠٢هـ)-، المحقق: صفوان عدنان الداودي، الناشر: دار القلم، الدار الشامية، (دمشق- بيروت)، الطبعة: الأولى، ١٤١٢هـ.

٧٢. المفردة القرآنية في نظم الجملة الحالية في سورة [البقرة] "دراسة تفسيرية تحليلية"، رسالة قدمت؛ لنيل درجة العالمية (الدكتوراه) في التفسير وعلوم القرآن، كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بـ(القاهرة)، جامعة الأزهر- للباحثة/ أمل محمد عبد الفراج علي راشد- المدرس المساعد بقسم التفسير وعلوم القرآن، بجامعة الأزهر، بإشراف: أ.د/ ناجح غازي محمد رزق، أستاذ التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر، و أ.م/ أحمد زغلول صادق، أستاذ التفسير وعلوم القرآن المساعد المتفرغ بجامعة الأزهر.

٧٣. مناهل العرفان في علوم القرآن– المؤلف: الشيخ/ محمد عبد العظيم الزرقاني–، تحقيق: أحمد بن علي، الناشر: دار الحديث– (القاهرة).

٧٤. الموافقات– المؤلف: إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي (المتوفى: ٧٩٠هـ)–، المحقق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، الناشر: دار ابن عفان، الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ– ١٩٩٧م.

٧٥. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور– المؤلف: إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي (المتوفى: ٨٨٥هـ)–، الناشر: دار الكتاب الإسلامي، (القاهرة).

٧٦. الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره، وأحكامه، وجمل من فنون علومه– المؤلف: أبو محمد مكي بن أبي طالب حَمّوش بن محمد بن مختار القيسي القيرواني ثم الأندلسي القرطبي المالكي (المتوفى: ٤٣٧هـ)–، المحقق: مجموعة رسائل جامعية بكلية الدراسات العليا والبحث العلمي– جامعة الشارقة، بإشراف أ.د/ الشاهد البوشيخي، الناشر: مجموعة بحوث الكتاب والسنة، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الشارقة، لطبعة: الأولى، ١٤٢٩هـ– ٢٠٠٨م.

٧٧. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان– المؤلف: أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم ابن أبي بكر بن خلكان البرمكي الإربلي (المتوفى: ٦٨١هـ)–، المحقق: إحسان عباس، الناشر: دار صادر – (بيروت).

فهـــــرس الموضـــــــــوعات

الموضـــــــــــــوع
المقدمة
سبب اختيار الموضوع
الهدف من دراسته
الدراسات السابقة
أهمية الدراسة
منهج البحث
فصول الرسالة، ومباحثها
الفصل الأول: مفتاح التعامل من النظم القرآني
مدخل إلى الدراسة
المبحث الأول: حقيقة وصف العربية
المبحث الثاني: ضوابط دراسة عناصر النظم وفهمه

الضابط الأول
الضابط الثاني
الضابط الثالث
الضابط الرابع
الضابط الخامس
الضابط السادس
الضابط السابع
الضابط الثامن
الضابط التاسع
الفصل الثاني: من أسرار الوصف بالعربية في النظم القرآني
توطئة
المبحث الأول: اختيار العربية من مقتضيات حال التحدي، ومستدعيات ثبوت الإعجاز
المبحث الثاني: الكشف عن مقومات اللغة الذاتية، وخصائص لسانها الأساسية

المبحث الثالث: إيثار العربية لغة للتنزيل إقامةً للحجة، ودحضا للمعذرة
المبحث الرابع: حصول الامتنان، ولفت النظر للاتباع.
المبحث الخامس: بيان وظيفة الأمة العربية، وإعلان مسئوليتها تجاه البشرية.
المبحث السادس: الترهيب من الإعراض عن التنزيل، والتفريط بواجب الدعوة إليه
المبحث السابع: تقرير أن اللغة العربية هي مفتاح التعامل معه، وسبيل الكشف عن إعجازه
تتمة
تذييل
الخاتمة
أهم النتائج
أبرز التوصيات
الفهارس
فهرس المصادر والمراجع
فهرس الموضوعات